

غزو غير مسلح



الكاتب: رند وهبة

المصدر: مركز الإتحاد للأبحاث والتطوير

تاريخ الإصدار: 24 كانون الأول / ديسمبر 2021

غزو غير مسلح

5	بين العنف واللاعنف
7	1. الإبادة والهيمنة ثقافية
7	الأولى الاسقاط والتشهير (projection and defamation)
11	الثانية السلب الثقافي (Cultural appropriation)
12	الثالثة التماهي (Assimilation)
13	تدمير الأسرة والمنظومة الأخلاقية
14	تحويل الهوية
17	2. الهيمنة السياسية
17	التحالفات وخيانة النخب
20	دعم الثورات
21	خلق الحساسيات الطائفية والعرقية
22	اختلاق الحروب
25	3. نكث غزل الاقتصاد
25	من الانتاج الى المضاربة
25	فتح الاسواق والتجارة الحرة
26	ديون الافراد واقتصاد الدولة
27	الدولة المدينة
30	الدين البغيض
31	المشاريع التنموية والبنية التحتية
32	العقوبات والقانون دولي
35	4. مساعدات ومنظمات مجتمع مدني
37	5. التهجير ومعسكرات الاعتقال والمحميات
38	6. الحروب البيئية والغذائية
41	الأمراض والأدوية
43	قائمة المراجع

"What fools these mortals be!"

2d COPY DELIVERED TO THE
JUN 1 1898
Periodical Dept.

Puck

Entered at N. Y. P. O. as Second-class Mail ~~1898~~ COPY.

LIBRARY OF CONGRESS
OFFICE OF
JUN - 1 1898
Register of Copyrights.



"UNITED WE STAND FOR CIVILIZATION AND PEACE!"

بين العنف واللاعنف

"ذروة فن الحرب هي إخضاع العدو من دون قتال" صن تزو

قال صن تزو هذا قبل 2500 عام، وابدأ من هنا للدلالة على قدم فكرة تحقيق المآرب السياسية والاستراتيجية بدون قتال، وما أصبح يعرف اليوم بالحرب الناعمة وما تشمله من تفخيخ الدول من الداخل، والتي يمكن تعريفها بأنها جملة الوسائل غير "العسكرية المباشرة" لإخضاع الخصم وتحقيق المصالح السياسية والاستراتيجية، من الطريف أن نعلم أن جيش صن تزو نفسه قد تمت هزيمته بمثل هذه الوسائل، إذ استعاد ملك غوجيان مملكته وانتقم من الغازي بشن حرب ناعمة ممنهجة ومدروسة لإفقاد الخصم كل مقومات الدفاع والقوة.

الوسائل التي تعتمدها الحرب الناعمة وتفخيخ الدول من الداخل، تشمل الاقتصاد والثقافة والحرب البيئية والبيولوجية وهي ليست بأقل عنفاً وتدميراً من الحرب العسكرية المباشرة، وقد يلجأ إليها المدافع كما المهاجم، وتتراوح الدوافع للجوء إليها فهي قد تكون بديلاً عن الحرب العسكرية، وذلك لعدم الرغبة بالخوض في صراع مسلح لأسباب لوجستية أو اقتصادية أو اجتماعية، أو لعدم القدرة نتيجة لمعادلة ردع ضد خصم ندد يعتد به، وقد تأتي كمكمل للعدوان والغزو العسكري، أي كمرافق له أو متمم من بعده، ومن الجدير بالذكر أنها أيضاً قد تستخدم لذاتها، فهي عدوان شرس وذو كفاءة عالية وآثاره أكثر ديمومة وتجذراً على الخصم إذ قد تمتد آثارها لأجيال وقرون وتبعاتها عادة ما تكون أعم وأشمل من تبعات الحرب العسكرية المباشرة.

في تاريخ الامبراطوريات هناك سجل حافل من التدمير الممنهج والمتعمد لقتل بذور النهضة لدى الشعوب المستعمرة بأساليب متعددة ومتداخلة، بعضها عدواني صريح والآخر مدهن ومستتر سآحاول حصرها بعناوين مع اعطاء أمثلة، علماً أن التصنيف هو اجتهادي الشخصي مبني على قراءاتي وآمل أن يكون شاملاً قدر المستطاع، وسأحاول تسليط الضوء على جذور وتطور هذه الأساليب من العصور القديمة إلى اليوم في بعض الحالات وفي حالات أخرى سأكتفي بإعطاء مثال أو أمثلة بارزة، وسأركز على الاستعمار الأوروبي والأمريكي ومن الجدير بالذكر أن الحضارة الرومانية هي المرجع الأخلاقي والفلسفي للاستعمار الغربي¹، لذلك سأحاول العودة إلى الحقبة الرومانية كلما استدعت الحاجة.

ويتبع هذه المقالة، مقال ملحق ان صح التعبير، وهو مخلص كتاب بعنوان امبراطورية غير مجيدة، يسجل فيه الكاتب ساشي تهرور مرافعة مفصلة حول الاستعمار البريطاني للهند، واخترت الهند كنموذج، لأن عملية استعمارها لم تكن لتتم دون استخدام جملة الأساليب غير "العسكرية المباشرة" والتي مكنت جزيرة صغيرة كبريطانيا من اخضاع

1 المسألة بالطبع ليست عرقية بل أيديولوجية، بل هي مفهوم يتكلم عنه نيتشه في جينولوجيا الأخلاق، أخلاق الرومان هي أخلاق القوة والسيطرة والهيمنة، وتعتبر الضعف والتعاطف سوء أخلاق أو أخلاق منحطة للدقة، بل ان نيتشه يقول بأن ديانات كالمسيحية جاءت كعارض نفسي للضعيف والمهزوم ليواسي نفسه على هزيمته وعجزه تجاه الأقوياء، فبدل أن يقاتل ليأخذ كل ما يمكنه من هذا العالم فهو يلجأ ليقول إنه هناك خلاص في عالم آخر ينال به المظلوم مكافأة على عجزه وقلة حيلته وضعفه و"انحطاطه" بحسب نيتشه.

وسلب ونهب شبه قارة كانت تفوقها بالحجم والسكان والثروات والحضارة والعلم عشرات الاضعاف بدون قوة عسكرية تذكر.

الإبادة والهيمنة ثقافية

"ان الفصل الأخير لأي إبادة ناجحة يكون عندما يُبعد المضطهد يديه، ويقول يا إلهي ما الذي يفعله هؤلاء

الناس بأنفسهم إنهم يقتلون بعضهم البعض، إنهم يقتلون أنفسهم" (Huey, 2010)

الإبادة الثقافية هي عملية ممنهجة ومعقدة وتهدف الى إعادة خلق الخصم من داخله وإعادة رسم تصوراته عن نفسه وعن عدوه، وبالتالي تغيير حقيقة الخصم من داخله، هي عملية تعديل جيني فكري بحيث تحتفظ به جسدياً وتعديل برمجته بالكامل ليخدم مصالحك وأهدافك وكثيراً ما تعمل على توجيه مجتمع ما وخلق الظروف المؤاتية لكي يقوم بعملية تدمير ذاتي تريح الخصم من عبء محاربتة، هناك أدوات وآليات لهذه العملية، فأما الأدوات تختلف من عصر الى آخر، فالبروباغاندا قديماً كانت بالخطابات والشعر وكتب التاريخ، أما اليوم فالأكاديميا والاعلام والترفيه والمناهج ومنظمات حقوق الانسان والمجتمع المدني ووسائل التواصل كلها تسخر كأدوات للإبادة الثقافية، وفيما يخص الآليات فعلينا هنا أن نبدأ من روما التي صعدت الى المسرح العالمي حينها من قرية صغيرة على حافة الحضارة، وعاصرت الحضارات "القرطاجية" والاغريقية ومصر البطلمية والفارسية، وبينما عُرف نموذج الاخيرة بأنه لا يفرض ثقافته على الشعوب التي يحكمها ويقبل بالتعدد والتنوع الثقافي، كانت قرطاج منفتحة هي الاخرى ولكنها لم تكن امبراطورية بمعنى أنها لم تضع شعوباً أخرى تحت كنفها برغم توسعها، وهي الأخرى لم تحاول "التبشير" بحضارتها ولا فرضها على الآخرين، أما الإغريق، فكان لهم نموذج خاص من المداهنة الثقافية ساعدوا اليه لاحقاً، أما الرومان بدورهم وفي مرحلة الصعود السريع لإمبراطوريتهم وسيطرتهم على المتوسط، كانوا يقومون بعملية "رومنة" Romanisation للشعوب المسيطر عليها والتي تألفت من 3 آليات ضمنية:

● الأولى الاسقاط والتشهير (projection and defamation)

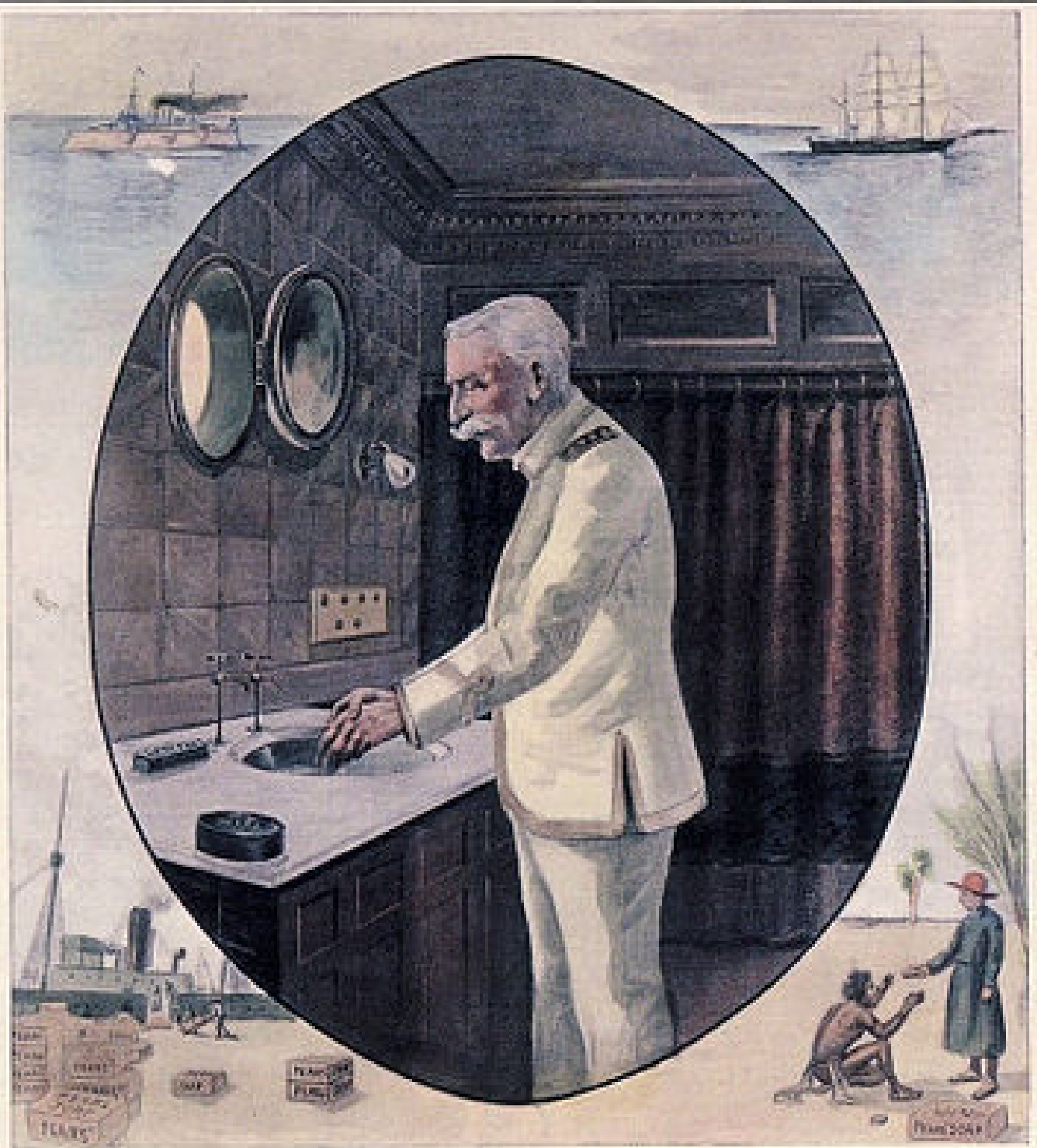
"اقتل الهندي، وحافظ على الرجل" الجنرال ريتشارد هنري برات، المشرف على مدرسة كارلايل الصناعية

للهنود

وهي حملة اتهامية من تحقير الأخلاقي والثقافي للشعب المهزوم، وتطهير المحتل من أسوأ صفاته وإصاقها بالخصم، "لم يقيم السلام القرطاجي عندما أبادت روما قرطاجنة عن بكرة أبيها بل عندما صار القرطاجيون يقولون عن تدمير قرطاجنة ما يقوله الرومان. ولم يقيم (السلام الطروادي) عندما محا الاغريق طروادة من على وجه الأرض بل عندما صار الطرواديون يستمتعون بقراءة هومر... هذا (السلام القرطاجي) لم يدم إلا لأن إبادة (وعي المقاومة) كانت أدمى وأوحش من إبادة البشر." (العكش، حق التضحية بالآخر، أميركا والابادات الجماعية، 2002).

إن حملات الإسقاط والتشهير لا تكتفي بالكذب وحده، بل تتضمن أيضا عكس أسوأ صفات الرومان على خصومهم، وبهذا ومن أشهر الأمثلة هي حملة المسعورة التي شنت على القرطاجيين التي لا تزال اثارها قائمة لليوم في الكتابات والأدب وحتى علم الآثار، الذي يحاول إثبات صحة الادعاءات الباطلة من التضحية بالبشر والأطفال من ضمن افتراءات أخرى، كذلك مثلاً قام المستعمرون الانجليز بعكس بعض أسوأ صفاتهم على الهنود الحمر، مثل أكل لحوم البشر الذي كان منتشرا بين الانجليز وان لم يكن بشكل واسع، الا انه موثق في الادب والاغاني الشعبية والمستندات التاريخية والرسمية وحتى القضائية والقانونية الصريحة التي تؤكد وجود هذه الظاهرة بين الانكليز، كما انها لا تزال موجودة لدى البيض اليوم وان بشكل محدود جداً تظهر كل عدة سنوات حالات لقتلة متسلسلين يأكلون لحوم البشر، في المقابل هي معدومة بالنسبة للسكان الاصليين، بل كانوا بطبيعة الحال يعتبرونها وحشية ومستهجنة، قام الرجل الابيض بإسقاطها على "الهنود الحمر" في خطابه وأدبه وسياساته وكل منتجاته الثقافية، بل إن كل تصوير للسكان الأصليين في الأفلام والرسوم المتحركة، لم يخل من هذا التشهير والإسقاط حتى منتصف القرن العشرين، إلى درجة أن الكثيرين من السكان الأصليين أصبحوا يعتقدون أن هذه حقيقة أجدادهم، كذلك مسألة النظافة الشخصية، كل الوثائق التاريخية تدل على ان كل لقاء بين الرجل الابيض والسكان الاصليين في مختلف القارات قد سخر فيه الابيض من عادات النظافة والاستحمام عند الاخرين، بينما اشتكى الأولون من قذارة ورائحة الرجل الابيض، عندما اكتشف الرجل الابيض الصابون في القرن التاسع عشر قرر قلب الصورة، واعتبار حملة "التطهير" التي يقودها ضد الاخرين و"تحضيرهم" التي يفرضها عليه "عبء الرجل الابيض"² (العكس، حق التضحية بالآخر أميركا والابادات الجماعية، 2002)، والمسألة ليست مجرد تزوير خطابي وأدبي كما يقول ادوارد سعيد (سعيد، 1981) في الاستشراق فهو خلق عالم قائم له دوافع ومصطلحات وقوى داخلية ومجتمع يعيد خلق مواده ويبنى عليها وعلى نقدها فهو عالم معاش وليس مجرد كلام وأفكار ومفاهيم، فبحسب سعيد، الاستشراق قام على ثلاثية المعرفة والسلطة والانشاء/الخطاب، التي كانت تغذي بعضها وتخلق عالمها ومجتمعها.

2 مفهوم صاغه روديارد كيبلينغ شاعر الهوية الوطنية البريطانية، انظر نموذج استعمار الهند (امقال ملحق) للاطلاع على امثلة من اعماله في الإسقاط والتشهير بحق الهنود في شبه القارة الهندية، اما فيما يخص المصطلح نفسه فهو عنوان قصيدة للشاعر نشرت في 1899 لتعبر عن روح العصر، فهو يقلب عدوان الرجل الابيض بالحديد والنار، الى عمل خيري يقوم به كعبء لأن عليه اتمام رسالة حضارية بتعليم الشعوب الاخرى حضارته وان تطلب الامر الكثير من القتل والاذلال والنهب فهو لا يقارن بالمتة الحضارية التي يجلبها الرجل الابيض معه، انظر الرسوم المرفقة بينها واحدة فقط تسخر من قلب المفاهيم بينما اغلب صحافة العصر آنذاك عظمت هذا المفهوم.



The first step towards lightening

The White Man's Burden

is through teaching the virtues of cleanliness.

Pears' Soap

is a potent factor in brightening the dark corners of the earth as civilization advances, while amongst the cultured of all nations it holds the highest place—it is the ideal toilet soap.

وبالعودة إلى تجربة الإبادة الثقافية للسكان الأصليين في أميركا، التي لحقت الإبادة العرقية لغالبية هؤلاء الشعوب، ومصادرة أراضيهم وتهجيرهم، وإسكانهم في محميات مقفرة، تم اتباع سياسة تُظهر إنسانية أكثر، إذ اعتبرتهم من البشر وأن قتلهم بالشكل الصريح لا أخلاقي، ظهر مبدأ "اقتل الهندي وحافظ على الرجل" وهدفت تحت ما يسمى بعبء الرجل الأبيض لفرض "حضارة" الرجل الأبيض عليهم وبالذات على أطفالهم "كان لا بد من خلق جديد لهندي ليس له من هنديته إلا البيولوجيا. لا بد من صياغة جديدة لوعيه وذكرته وأخلاقه ومسلّمات عقله." (العكش، أميركا والابادات الثقافية "لعنة كنعان" الانجليزية، 2009) تم خطف الأطفال ووضعهم بمدارس تبشيرية أشبه بمعقلات الأعمال الشاقة، التي عانو فيها من الجوع وعمل السخرة والاعتصاب والضرب والأمراض وهذه المدارس التي اقتربت أغليتها بالمداخن لارتفاع معدلات الموت³، في هذه المدارس كان يتم تعليم الأطفال أن يحتقروا ثقافة أهلهم ولغتهم وهويتهم بشكل متعمد وممنهج ومدروس، كانوا يغيرون اسمائهم ويحرقون مقدساتهم فمن نجا من هؤلاء الأطفال غالباً خرج بأمراض نفسية ومشاكل هوياتية عميقة تجاه نفسه وأصله وهويته، وقلة قليلة منهم أصبحوا أميركيين فيما سألصله تحت عنوان التماهي.

ومن الجدير بالذكر أن هناك مسائل حساسة يتم استهدافها عند التشهير بشعب أو مجتمع ما، فلطالما كانت مسائل عادات الأكل والشرب والنظافة والعلاقات الاجتماعية والزوجية بالإضافة إلى الدين، مسائل يتم تشويه الآخر لأجلها وشيطنته ونزع الانسانية عنه، وهكذا فإن التركيز عليها في حملات التشويه ليس عفويًا ولا مصادفة، فنزع الانسانية عن الآخر مقدمة لقتله بدم بارد.

أيضاً يشتمل الاسقاط والتشهير على تشويه النموذج الثوري، ان كان دولة أو ثورة، أو قيادة ثورية، لأن وجود النموذج هو تريقاق مضاد لكامل عملية الابادة الثقافية، فالنموذج يعري كذب المستعمر، ويضخ الأمل في جموع المضطهدين وفي كثير من الأحيان يرسم الطريق العملي الواضح للتمرد والثورة، ولهذا فقد قامت أميركا بمعادة هاييتي وتدميرها وتعتمد إلى الحرص على بقائها تحت الانقاض كما سألصل لاحقاً، لأن هاييتي تمثل أول ثورة ناجحة في تحرير العبيد، وأول دولة سوداء محررة وقد نص دستورها الأول بعد الاستقلال على منع الرجل الأبيض التملك أو العمل كسيد في الجزيرة مجدداً⁴، وبذكر هاييتي وتدمير النموذج تقول البروفيسورة الهايتية يابينة بللو في محاضرة لها، أن الغرب يريد لنا أن نظن أننا وحوش ويريدون تدمير رموزنا الثورية وقادتنا المهلمين، انهم يغتالون بياتريس لومومبا، ويخلقون لنا موبوتو، يقولون لنا هذا انتم/ متوحشون تقتلون بعضكم، وبالمقابل علينا أن نعرف أنفسنا ونعرف ثوارنا وأن نميز الرموز التي نصنعها من الرموز التي يصنعونها عنا ولنا، لأنهم يصنعون هذه النماذج لتدميرنا ولكي نكره أنفسنا أيضاً، نفس الشيء يمكن قوله عن كوبا، فعداء أميركا لكوبا ليس لأنها تشكل تهديداً فعلياً ومادياً لأميركا، بل لمجرد أنها نموذج ثوري ملهم مقابل سواحلها، هذا بحد

3 ظهرت في الأشهر الأخيرة أخبار متواترة من كندا عن حرق كنائس ومدارس من قبل السكان الأصليين، وذلك عقب اكتشاف مقابر جماعية للأطفال في ساحاتها، وهذا الجرح العميق للسكان الأصليين يشكل جزءاً حساساً من الذاكرة الحية، إذ استمرت هذه السياسة حتى سبعينات القرن الماضي ولا يزال الكثيرون ممن خطفوا وعانوا في هذه المدارس على قيد الحياة.

⁴ بحسب البروفيسورة فإن أغلب الكتب تغفل ذكر هذا الدستور (دستور عام 1805) وتذكر دستور ما قبل الاستقلال أو الدساتير التي أتت من بعده، لأنه نص على أساسيات تعترف مهمة هاييتي كأمة، منها منع الرجل الأبيض من التملك، وأنها تستقبل كل السود في العالم وتحتضن كل محرري العبيد، وأن أي رجل أسود يحط قدمه في الجزيرة يصبح رجلاً حراً بشكل تلقائي ويكتسب الجنسية الهايتية ويصبح مواطناً، تعدل الدستور منذ ذلك الحين أكثر من 35 مرة، بمحو مهمة هاييتي التحررية بالتدريج مع كل تعديل، وفي عام 1915 عند احتلال الولايات المتحدة الأمريكية لهاييتي تم إلغاء بند منع الرجل الأبيض من التملك والعمل كسيد، إذ قامت بفرض عدة تعديلات بالضغط على البرلمان، عند تعديل هذا البند بالذات، رفض كل البرلمانين الانصياع، فقام جنود البحرية الأمريكية محاصرة البرلمان واجبار أعضاء البرلمان باقرار مرسوم تعديل كتبه الاحتلال الأمريكي بشكل ديمقراطي.

ذاته تهديد لمصالح أميركا وبنظرها فهو يجب أن يدمر، لكن لحسن حظ الكوبيين فإن أميركا لم تتل من كوبا كما نالت من هايتي.

● الثانية السلب الثقافي (Cultural appropriation)

تسخر المغنية الثائرة من جنوب افريقيا مريم ماكيبا من منطق الرجل الأبيض، وتقول بما معناه إنه لا يهم أن يوجد أمر ما يعرفه أي شعب لآلاف السنين، فهو لن يعتبر كذلك إلا عندما يكتشفه الرجل الأبيض ويضع يديه عليه، أيضاً الرومان اعتمدوا هذا الاسلوب، اذ أن كل المنجزات الحضارية للرومان هي منجزات "مستعارة" كما يحب ان يسميها بعض المؤرخين، ان لم تكن مسروقة، فعليا في العمارة، والتنظيم، والعلوم والطب وحتى الأديان والفلسفة والقانون، كلها تم استعارتها من القرطاجيين أولا ومن اليونانيين ثانيا، ثم المصريين والفرس وسوريا ونسبت زوراً للرومان، ونرى السلب الثقافي اليوم بأمر أعيننا في فلسطين بسرقة التاريخ والتراث الذي يقوم به العدو الصهيوني.

أيضاً خلق البريطانيون اسطورة الاندو-اوربيين (الأصل الآري للهنود)، وأن حضارة شبه القارة الهندية، بغناها وتطورها وعلومها هي نتاج وبقايا حضارة قديمة جاء بها آريون من شمال أوروبا في العصور القديمة، اليوم كل علوم الآثار والتاريخ تنفي هذه الرواية فأوروبا تأخرت 3 الاف عام على أقل تقدير عن حضارات المشرق، وهي لم تتوصل إلى الحضارة إلا بالتواصل مع هذا المشرق، ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي حاولوا فيها التشكيك بأي موروث ثقافي وحضاري للشعوب المستعمرة اذ جرت العادة الى نسب حضارات الشعوب السمراء والصفراء الى صلة ما بتواصل مع شعب اوروبي ما أو في بعض الحالات بسبب صلة باليهودية او المسيحية.

المسألة هنا في جانب منها نرجسية وظاهرة نفسية مرضية لا تقبل بوجود مكافئ حضاري عند الاخر، فما بالك اي نوع من التفوق الحضاري، ومن جهة أخرى هي عملية عقلانية مقصودة لها أثرها في المدى القصير والبعيد، فهي تسعى لتجريد العدو والآخر من أي قيمة حضارية وتدفعه لتحقير ذاته ولكي "يهن ويسهل الهوان عليه" أي لتبرير العدوان على نفسه وهزمه من داخله وسلبه من اي مرتكزات ثقافية حضارية قد يتمكن من البناء عليها للقيام بأي نهضة ومقاومة تذكر، وان لا يجد المرء في بيئته وحضارته ما يستحق الدفاع عنه والقتال من أجله، وهي آلية تكمل الآلية الأولى فيتطهر الغازي من مذمته ويلقيها على الضحية وفي نفس الوقت يلبس كل فضائل الضحية ويظهر بصورة تطهيرية خلاصية نقية. وبالعودة للمثال الأمريكي في الإبادة الثقافية يقول العكش: "ولا بأس أن يعرف هذا الهندي كل شيء الا ذاته." (العكش، حق التضحية بالآخر أميركا والابادات الجماعية، 2002). والمعرفة هنا سلاح استعماري يجرد الضحية من حقيقتها ومعرفتها بقوتها الكامنة، وسلاح يساعد المستعمر على التحكم وادارة الضحية، يقول الانثروبولوجي نيكولاس ديركس بأن الاستعمار كان بالتقنيات الثقافية للتحكم بقدر ما كان ممكن بفعل القوة والاخضاع، وان الاستعمار بحد ذاته هو مشروع ثقافي للتحكم، فالمعرفة الاستعمارية مكنت الهيمنة الاستعمارية وكانت نتيجة لها في ذات الوقت (Inglorious Empire, Tahroor, - What the British Did to India, 2016).



● الثالثة التماهي (Assimilation)

هذه الآلية تأتي كمتعمم للآيتين السابقتين، فبعد أن تم تنصيب المستعمر أو الغازي، كإنسان أعلى وأسمى يصبح هو المثل الأعلى الذي يجب على المضطهدين التمثل به للتخلص بؤسهم الذي سببته لهم حضارتهم "المتخلفة والرجعية"، هذا خطاب سمعناه كثيراً من ماكرون مثلاً فيما يخص إفريقيا، الأمر لم يكن مجرد انتقاد عنصري مبطن بلبوس ثقافي، بل هو أولاً غسل لدور فرنسا في مآسي ومجازر وإفقار إفريقيا الغربية ودعوة لاستمرار تبعية دول غرب إفريقيا لفرنسا كمخلصة للبائسين السمر، هنا أيضاً فالسابقة التاريخية تعود لروما، فهي دوناً عن الحضارات التي سبقتها وعاصرتها سعت إلى فرض نمط معيشتها ومعتقداتها على الشعوب التي هيمنت عليها.

فعندما يبدأ المستعمر بالتفكير بعقلية المستعمر، يصبح جندياً في جيشه، ودافع ضرائب لخزينته، وبوق لأفكاره ومبرر لسياساته وجرائمه، هؤلاء هم من دعاهم مالكوم اكس بعبيد المنزل (House Negro) هم اعداء أهلهم وشعبهم بمعرفة أو جهل، فهم يتماهون مع "السيد" ويتألمون لألمه، واعتبر قانون أن على الشعوب المضطهدة ان تبدأ بالانفلات من عقال هذا التماهي لتبني أسس تحررها (Fanon, 1963) إذ ادعى الرجل الأبيض في مختلف بقاع الأرض التي استعمرها لنفسه أنه ينقذ أرواح هؤلاء البشر، بينما هو فعلياً كان يقوم بفعل التربية والتهيئة النفسية (grooming) ويعدها لتقبل الاضطهاد والنهب تحت عنوان التحضر والمدنية، وبالفعل هذا التماهي هو غير معني بالذوبان والاحتواء فقط بل هو فرض مفاهيم وأخلاق جديدة لتسهيل عملية الهيمنة والنهب والاضطهاد، وأعود للعكس هنا "ودروس المدنية هنا شديدة الطرافة. وطرافتها ليست في أنها تنسج

للمدنية معينين ونظامين اخلاقيين مختلفين باختلاف لون البشرة بل في أنها تعلم الهندي حب الملكية الخاصة من أجل أن يسلبه المستوطن كل ما يملك." (العكش، أميركا والابادات الثقافية "لعنة كنعان" الانجليزية، 2009).

تدمير الأسرة والمنظومة الأخلاقية

تقول البروفيسورة الهايتية يابينة بللو أن أي احتلال في أي بلد في العالم سيجلب معه ارتفاع غير مسبوق بالدعارة، لأن الجنود سيحتاجون بنات الهوى، ولأن هذا الجنرال الأمريكي أو ذاك لن يذهب ويبحث عن فتيات الهوى في الشارع بل سيحتاج اختي وابنتي ليشبع بها حاجاته، وهو ما حصل في هاييتي بعد احتلال 1994 وهذه ما حصل في تايلاند التي كانت قاعدة لانطلاق الحرب الامريكية على فييتنام، انتهت الحرب وتحولت تايلاند الى مركز عالمي لتجارة الجنس، بل أصبحت هذه التجارة هي مصدر دخل رئيس للدولة وأصبحت الدعارة أمراً اعتيادياً في المجتمع، كل أمطاط الجنس والمتحولين جنسياً ومتعددي الهويات الجنسية والمتحرشين بالاطفال يذهبون ويجدون ما هو ممنوع في بلادهم في تايلاند، هذا كله من مخلفات التحالف مع أميركا، كذلك في كوريا تم استعباد الكثير من النساء لتوفير الجنس للجنود الأمريكيين، وتركة التحالف الأمريكي لكوريا الجنوبية والحرب التي تسببت أميركا بها تتعدى انقسام البلد الى كوريتين، بل بخلق مجتمع استهلاكي مشوه الهوية ومهووس بالجنس وتسليح المرأة، وأيضاً في اليابان فإن أهالي أو كيناوا يعانون من القواعد الأمريكية واغتصاب الجنود الأمريكيين لنسائهم لليوم ولنشرهم الدعارة في مجتمعهم، صحيح أن هذا التدمير الاجتماعي الاخلاقي في هذه الحالات يبدو كنتائج عرضي لوجود جنود رجال وحيدين يريدون اشباع حاجاتهم بأي طريقة، ولكنه في التاريخ الأمريكي موثق كعدوان ممنهج ومقصود لكسر الروح لدى الآخر، فحالات الاغتصاب في المدارس الداخلية لأطفال السكان الأصليين في أميركا عامة وشاملة، وفي حالات كثيرة معترف بها كإجراء مكمل لعملية كسر و"قتل الهندي" و"تمدينه"، بل إن مدير مدرسة اعترف بأنه اغتصب كل الأولاد الأطفال الذين كانوا في مدرسته وسخر بالقول بأنه لم يترك طفلاً الا وقد "مدنه" مشيراً الى عملية الاغتصاب (العكش، أميركا والابادات الثقافية "لعنة كنعان" الانجليزية، 2009)، هذا أيضاً نراه في الاذلال الجنسي الذي تعرض له المسجونون في أبو غريب على يد الأمريكيين، لذا فالأمر يتعدى الحاجة والشهوة الجنسية إلى عملية التفكيك الاجتماعي والقهر الأخلاقي والروحي للشعب المحتل والخاضع.

أيضاً هناك مسألة المخدرات، هناك الكثير من الحديث اليوم عن دور الولايات المتحدة وعلاقتها بزراعة وتجارة الأفيون في افغانستان، وهناك الكثير من الحديث عن علاقة الولايات المتحدة الأمريكية الجدلوية مع تجارة الكوكايين وعلاقة ذلك بالتحكم بكولومبيا واستهداف المجتمعات السوداء والفقيرة داخل أميركا، ولكن مما لا جدل فيه أن الرجل الابيض استخدم المخدرات، واستعبد الناس في الهند، لزراعة الأفيون وتهريبه وبيعه للصينيين، لكي يستطيع شراء الشاي (الذي كان مطلوباً ومربحاً في ذلك الوقت ولا يزرعه الا الصينيون) في القرن التاسع عشر دون الحاجة الى دفع الفضة في المقابل، تسبب وباء الادمان على الأفيون انحلالاً واشكاليات اجتماعية عميقة في الصين، فهو بالرغم من وجوده كعملة نادرة في السابق، لم يكن يشكل ظاهرة اجتماعية مربكة، إلا أن جشع البريطانيين حول الظاهرة إلى إشكالية اجتماعية واسعة الانتشار والخطر، وهذا ما نشرته أميركا في المجتمع عند احتلالها لهايتي، كما جلبت للجزيرة المجرمين من سجونها ونشرتهم لضمان تدير المجتمع الهايتي، يكاد لا يخلوا أي تدخل أميركي من آفة

المخدرات والحرب عليها، إذ انها وبالرغم من تركز تجارة المخدرات فيها، إلا أنها تشن حروباً ضد خصومها بزعم أنها تحارب تجارة المخدرات، هذه الحروب كلفت مئات آلاف الأرواح ومزقت مجتمعات كثيرة.

مع العولمة اليوم ووسائل الاعلام والتواصل الاجتماعي، يجد الاستعمار قدرة هائلة على "عولمة" أخلاق الفردانية والاستهلاكية وغيرها من القيم والمعتقدات التي تفتت المجتمعات، وتسهل التحكم بها، أهمية هذه المسألة للاستعمار والهيمنة تكمن في تزييف الوعي من ناحية، وتبديل الأولويات والحاجات وتمزيق قدرة المجتمع على معرفة حقوقه والنضال لأجله، فلا يستطيع المجتمع حتى تعريف قضاياه أساساً، وذلك بالإضافة إلى استهداف منظومة القيم المحلية من ضمن حملة الإسقاط والتشويه، نرى أمثلة كثيرة لهذا، مثل وهم الحلم الأمريكي الذي مزق الاتحاد السوفييت في حلم كثيرين وان لم يكونوا الأكثرية بالوصول اليه، الطريقة التي تمت بها خصخصة الاملاك العامة وسرقتها من قبل حفنة من رجال الأعمال بقيادة أمريكية، لا تزال تشكل اليوم إحدى أكبر سرقات العصر، مقابل موسيقى غربية وملاهي ليلية وبنطلون الجينز، تم تدمير دول ومجتمعات واقتصادات ملايين البشر، طبعاً انهيار الاتحاد السوفييت عملية معقدة ولها آليات سياسية واقتصادية داخلية وخارجية ضخمة، ولكن هنا أتحدث عن الرأي العام الذي لم يستطع استيعاب ما يحصل من نهب ولا التحرك ضد هذه السرقة بشكل مجدٍ وذلك لأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد نصبت شبكة واسعة ومحكمة من المؤثرين بالرأي العام من صحافة وجمعيات حقوقية وسياسيين، باعتهم وهم الحلم الاميريكي والحقوق الفردية بينما كانت تسرقهم بالجملة.

تحويل الهوية

وهو نمط آخر من الحرب الثقافية كبديل لإلغاء هوية الشعب المستعمر بشكل كامل ومحو ومهاجمة ثقافته، بحيث تكون منقحة ومحورة من قبل المستعمر بالشكل الذي يخدم أهدافه ومصالحه، مثل الدور البريطاني في خلق الهويات الوطنية الجديدة في المنطقة العربية وبالذات الهوية الأردنية وإعادة نحت البداوة والرجولة بما يناسب ويخدم مصالح الاستعمار البريطاني والدور الذي لعبه لورنس في سياسة العرب وما سمي بالثورة العربية الكبرى، وهو يتماهى معهم ويدهنهم و أسلوب عيشهم ويطوعه في نفس الوقت (Massad, 2001) وعندما تلطفت الإبادة الثقافية في أميركا الشمالية أيضاً سمحت وأعدت تشكيل الهوية الثقافية للسكان الأصليين بما يحمي ويبيض صفحاتها ويظهرها بشكل متسامح مع التعددية و"الآخر" بشكل فلكلوري سياحي مفرغ من أي كيانية سياسية تحمل أي بذور للتححرر، بعض الطقوس الشكلية التي يسمح ويقبل بها الرجل الابيض (العكش، أميركا والابادات الثقافية "لعنة كنعان" الانجليزية، 2009).

وهنا لن نعود في التأصيل إلى الرومان، بل إلى الإغريق، وإلى الإسكندر المقدوني تحديداً، الذي كان يعلم حجم مقدونيا الحضاري والثقافي في مقابل الشرق، وكان يعلم أن إخضاع الآخر عسكرياً له مفعولٌ قصير الأمد، وأنه لا يمكنه التوسع برشاقة كالتي قام بها والغزو شرقاً بتلك السرعة لو كان عليه التعاطي مع التمرد في البلدان المفتوحة عسكرياً، لهذا لجأ الى لبس لبوس الدول التي غزاها دينياً وثقافياً لتهديئة وامتصاص رد الفعل الشعبي، وإخفاء حقيقة الغزو الخارجي والظهور كابن وأخ وحتى إله لهذا الشعب أو ذاك ويتجنب إثارة الحساسيات الدينية والعرقية والحضارية، وهذا ما فعله في بابل ومصر وبلاذ فارس، وبهذا أنتج قادة جيشه الذين حكموا هذه البلاد ما يسمى بالعصر الهيلينستي، الذي تزوجت فيه الثقافة الاغريقية مع بقية الثقافات المشرقية الأكثر عراقية وغموضاً.

هذا الأسلوب بالذات سنراه يتكرر كثيراً في التاريخ ولكن أبرز من استخدمه هو نابليون بونابرت في حملته على مصر، إذ كانت مصر تمثل حجر أساس لقطع الطريق على بريطانيا بعد أن سيطرت على الهند بشكل كامل وأخرجت بقية القوى الأوروبية منها، احتاج الفرنسيون لاختراع مصر وضمها ولأنها على المدى الطويل وكان بونابرت مستعداً للتصدي في ادعاء حبه للإسلام والقرآن، لدرجة أنه كان على وشك أن يجبر كامل جيشه في مصر على اعتناق الإسلام ليحظى بمباركة رجال الدين المسلمين ويتفادى المقاومة، ومن المرجح أن هذا النموذج هو الذي استأنسه أوباما عندما جاء إلى القاهرة وألقى خطابه الشهير قبيل عشية ما يسمى بالربيع العربي المدمر والذي كان يراد له إخضاع المنطقة العربية للاخوان المسلمين وتسليم ناصيتها لتركيا بقيادة أردوغان كوكيل لمصالح الناتو. هنا نجد إذناً نوع من تقليد الهوية الثقافية وتطويعها وقلبها رأساً على عقب مع الحفاظ على قشرة خارجية تقليدية، ونرى أيضاً مدهانة من النخب المستعمرة لثقافة المستعمر ليتقبل الأخير ما يراد منه أن يكون وكيف عليه أن يفكر ولمصلحة من عليه أن يخدم، وربما قد لا يعلم كثيرون أنهم دمية في يد عدوهم.

HARPER'S WEEKLY

A JOURNAL OF CIVILIZATION

Vol. 15, No. 35.
Copyright, 1898, by Harper & Brothers.
All Rights Reserved.

NEW YORK, SATURDAY, AUGUST 27, 1898.

TEN CENTS A COPY.
FOUR DOLLARS A YEAR.



UNCLE SAM'S NEW CLASS IN THE ART OF SELF-GOVERNMENT.

1. الهيمنة السياسية

التحالفات وخيانة النخب

منذ نشأة الظاهرة الامبراطورية، كان هناك دائماً نخب مستعدة لخدمة القوى الخارجية على حساب شعوبها، بعضها كنتيجة هزيمة عسكرية وبعضها كنتيجة ضعف وبراغماتية وأنانية وحب للسلطة، انتشار هذه الظاهرة جغرافياً وتاريخياً، يجعل من حصرها واستعراضها بشكل وافٍ أمراً صعباً.

فيما يخص الرومان، فكما قلنا أنهم فرضوا ثقافتهم على الآخرين، واستعانوا في نفس الوقت بحكام محليين ليضبطوا الأمن ويؤمنوا الثروات والضرائب، في فترة صعود الامبراطورية الرومانية، كانت تمر بحقيبتها الجمهورية، كان الغزو والقوة والهيمنة أبرز دلائل رضا الآلهة ومكارم الأخلاق، فهذه الثقافة تمجد القوة لذاتها كأخلاق حميدة، هذا ترافق مع وجود مجلس شيوخ محصور بعائلات من سلالات المقاتلين تتحكم بالدولة، وكانت الطريق الأقصر للقمة هي النصر العسكري، لذلك فإن التنافس على الغزو كان يلبي المصلحة العامة للدولة والخاصة للطموحين من "النبلاء" حينها، عندما سيطرت روما على المتوسط أو الجزء المفيد من العالم كما يراه الرومان، بدأت الدولة تنحو نحو الحكم الفردي، وتبتعد عن الجمهورية، وهذا ما حاول الامبراطور اغسطس تكريسه، فهو يريد أن يكون امبراطوراً مؤبداً ويفني أي احلام بالعودة للجمهورية، لهذا السبب أقام ما يسمى ب"مذبح السلام الاغسطي" وهو مذبح مكرس للسلام كان يتفاخر اغسطس أن ابوابه كانت مغلقة طوال العام، فيما عدا أيام تقديم الذبائح السنوية، اذ سعى اغسطس الى كبت ولجم جنوح الرومان الى الحرب، وذلك بشكل أساسي كي لا يصعد من بين الجنرالات من يكتسب شعبية بانتصاراته العسكرية وينافسه على العرش ويشكك بشرعية بيته⁵.

وبالنسبة للسلام، فمن الضروري ان ننوّه الى أنّ السلام بالمفهوم الروماني هو الإخضاع التام للخصم، ولهذا فإن مذبح السلام هذا تزين بأطفال بملابس "بربرية" وهؤلاء بحسب د. كلاينر ود.بكستون هم نذور الامبراطورية (Buxton و Kliener, 2008)، هم أطفال وأبناء وأولياء عهد الملوك الخاضعين لروما، بالأصل هم رهائن، لكن في العصر الأغسطي هم أكثر من ذلك هم رومانيون في القلب والروح وعندما يكبرون سيصبحون رسل لروما في بلادهم، ويعودون لبلادهم ويحموها لخدمة روما ومصالحها، هم رومان بكل شيء فيما عدا الملابس، وهنا فيما يخص الملابس، فإنه يحمل رسالة للداخل الروماني قبل الخارج، ويقول أن هؤلاء هم تركة الامبراطور وهم مستقبل الامبراطورية ولباسهم يظهر قوتها وسيطرتها على الآخرين وأهمية مستعمراتها (Buxton و Kliener, 2008) هناك تشابه هنا فيما فعله اغسطس بما فعلته الملكة فكتوريا أيضاً، فحينما تم تهميشها من الحياة السياسية وتكريس دورها كملكة صورية، واحتاجت أن تعود إلى الحياة السياسة لجأت الى تتويج نفسها كإمبراطورة على الهند، في رسالة أن المستعمرات تعوض عن الداخل، لا بل أنها أهم وأكثر حيوية، في حالة أغسطس هو كان قوياً في الداخل والخارج ولكن، أراد أن يعلم كل المنافسين أن مستقبل المستعمرات في يده هو وحده، بأبناء ملوك المستعمرات الذين يربوهم في منزله ويعدّهم من عائلته ويعاملهم ويعدّهم كالرومان ليعيدهم للمستعمرات، وأن لا أحد من المنافسين يمكن أن يمتلك قوة أكبر منه في المستعمرات.

هذه القيادات المستوردة التي تترى في الغرب وتتمص شخصيته وتصبح ممثلة لمصالح موجودة اليوم بشخصيات مثل كرزاي، أو بعض أبناء ملوك العرب الذي درسوا وتربوا في الغرب، هؤلاء يختلفون عن آبائهم بالرغم من ولاء الآباء للاستعمار، إلا أن آبائهم يتقمصون شخصية الغربي ونظرته الاستعلائية على الشعوب الاخرى، ومنها شعوبهم،

⁵ الأمر يشبه ما قام به لويس الرابع عشر مع طبقة النبلاء في فرنسا، اذ روضها وحولها من طبقة اقطاعيين امراء حرب يشكلون تهديداً لشريعته الى طبقة من النبلاء والمترفين المسجونين في فرساي يتنافسون لنيل الرضى الملكي بالاتيكيك والموضة.

هؤلاء أيضاً تجدهم بين نشطاء المنظمات غير الحكومية، فهذه المنظمات تعمل على إعادة تشكيل وصقل وعي المنخرطين فيها، وتبديل منظومتهم الاخلاقية ومع منحهم مستوى معيشي جديد أعلى ويصعب الحصول عليه خارج هذه المنظمات، يبدأ هؤلاء الشباب بالنظر بشكل استعلائي وفوقى إلى محيطهم وبيئتهم واحتقارها ويبدأون باستبطان مصالح الغرب واستعمال خطابه، عن وعي أو دون وعي، فجزء منهم مقتنع أنه يدافع عن قيم وأخلاقيات عالمية لكل البشر ولا يعتقدون أنها تخدم خطاب لمصلحة الغرب ضد الشعوب الأخرى خصوصاً أن لدى هذه المنظمات أسلوباً في سوق الرأي العام، أسميه **بقيادة الغدد الصماء**، بمعنى، هذه المنظمات معنية أن تنفذ أجندتها ولكنها تريد في نفس الوقت أن تنبع أفكار أجندتها على شكل مقترحات من لاعبين محليين يمثلون "المجتمع المدني"، لذلك فهي وبالتنسيق مع الحكومات الغربية تقوم بوضع قائمة أولويات تتجدد بشكل دوري بحسب حاجاتها السياسية، هذه الأولويات هي عناوين تأخذ أولوية في التمويل، وبذلك ترى في كل فترة هناك موجة مختارة من الحقوق يتم الدفاع عنها وشن الحملات وتنظيم المجتمع المدني لأجلها بشراسة، ما يحصل هنا، أن هذا العنوان هو أصبح من الأولويات التي تستحق التمويل، طبعاً هناك الكثير من المنظمات المرتبطة بشكل مباشر وواعي وغير موارد مع الحكومات الغربية، ولكن المنظمات الأولى هي أكثر محلية ولأن ارتباطها غير مباشر فلها مصداقية أكبر، كما أن هذا اسلوب لتوجيه المنظمات المحلية التي تبحث عن تمويل ولكنها لا تقبل أن تستلم أجندة جاهزة من الخارج، فهذه الآلية تؤمن لها وهم الاستقلالية وأن برامجها محلية الصنع.

أما بالنسبة للاستعمار الأوروبي، فإن المثال الصارخ هو استعمار بريطانيا للهند، إن الاستعمار البريطاني للهند هو أشبه بمعجزة بالنسبة للبريطانيين، فهم بالمساحة وعدد السكان والحضارة والاقتصاد مجرد جزيرة صغيرة تحاول الحفاظ على بعض المخاطر التجارية على ساحل الهند، وتحاول البقاء في المنافسة بينها وبين بقية المخاطر الأوروبية الأخرى، كان لبريطانيا شركة الهند الشرقية، لتقوم بالتجارة والاستعمار في آن، وكانت كما بقية القوى الأوروبية تمتلك جيشاً صغيراً من المرتزقة الهنود، الذين يعملون بشكل متواتر مع الحكام الهنود المحليين⁶، إلا أنه وبالتأكيد أن قلة من البيض لم يكونوا ليحكموا قارة بدون الجنود والحكام الهنود المتواطئين وتمكنت بريطانيا بفعلهم إلى استنزاف شبه القارة الهندية من لاعب اقتصادي عالمي شكل 27% من الاقتصاد العالمي قبل مجيء البريطانيين إلى بلد موبوء بالفقر والحساسيات الدينية والجوع وممزق مؤسساتياً وبدولة مهترئة وعاجزة وباقتصاد لا يشكل أكثر من 3% من الاقتصاد العالمي عشية الاستقلال (خلال قرنين ونيف من الزمن) (Tahroor, Inglorious empire, what the british did to india, 2017). تلاعب البريطانيون بالهنود الوطنيين المطالبين بالاستقلال، كما تلاعبت بعملاتها، فنتيجة لأن النخبة السياسية الوطنية درست وعملت ضمن الثقافة البريطانية، فإن مواقفها في كثير من الأحيان كانت لينية، وتحمل الكثير من حسن النوايا تجاه البريطانيين الذين جوعوا وقتلوا ملايين الهنود، فمثلاً دعم زعماء وطنيون هنود الذين ينادون بالمقاومة السلمية ضد الاستعمار البريطاني، إرسال جنود هنود يقاتلون لمصلحة الامبراطورية البريطانية ضد شعوب مضطهدة أخرى خلال الحرب العالمية الأولى، طمعاً بأن تعامل بريطانيا الهندي كند و صديق محترم، ومقابل وعود بمنح الهند استقلالها، طبعاً بريطانيا نكثت وعدها بعد الحرب، بل قمعت أي تحركات مطالبة بالاستقلال، وارتكبت مجازر مروعة حتى بحق هنود يحتفلون بأعياد لا علاقة لها بالقضية الوطنية، وفي ذات اللحظة التاريخية هذه قامت بريطانيا وبكل نفاق بإدراج الهند كدولة في ميثاق الأمم، ليس كاعتراف باستقلالها، ولكن لضمان صوت اضافي في العصبة الأمم (Pershad, 2020)، صحيح أن النخبة الوطنية الهندية استفاقت بعد هذه الخديعة والمجازر التي رافقتها، ولكنها استمرت بالتعامل بعقلانية ضد الاستعمار البريطاني، في

⁶ انظر المقال الملحق عن تاريخ استعمار الهند كنموذج

الوقت الذي كانت بريطانيا تحضر لهم الارهاب والتقسيم والعمل على ضمان استقلال مدّمر للهند إن اضطرت له الامبراطوية، كما هو وارد في المقال الملحق.

وفيما يخص السكان الأصليين لأميركا الشمالية ففي البداية تحالف المستعمرون مع بعض القبائل وقادتها وطبعاً خانوهم بعد أن استنفذت الحاجة إليهم، أو عندما أصبح قتلهم مربحاً، ففي الوقت الذي رصدت جوائز للصيادين على فروات "الهنود" قام المستعمرون بالإغارة على الحلفاء "كان الصيادون يتعهدون قرى معينة ولا يبقون فيها فروة واحدة. حتى أن القرى المكسيكية وراء الحدود صارت هدفاً للصيادين. ولأن فروة "راس الهندي" الحليف" لا تختلف عن فروة الهندي العدو، ولأن صيدها أسهل، ولأن أخلاق السوق لا تعنيها هذه التفاصيل التافهة فقد ركزت هذه التجارة جهودها على صيد رؤوس الحلفاء ولا سيما أولئك الذين تطهروا ارواحهم واستعاروا لأنفسهم أسماء قديسين." (العكش، حق التضحية بالآخر أميركا والابادات الجماعية، 2002).

وفي حالة "هنود" السيمينول، الذين قاوموا وأفشلوا كل محاولات اقتلاعهم من أرضهم، من تجويع وحرق أرض وحروب مباشرة، وبعد اقتراحات عدة، تم اقتراح تشكيل مجالس سلام ليتّم من خلالها إلقاء القبض على السيمينول، وتم شراء الذمم لبعض الخونة الذين أوقعوا إختوتهم في فخ المفاوضات وبكلمات العكش "ثم أنه اشترى ذمم بعض الهنود وأرسلهم إلى زعماء السيمينول لكسب ثقتهم وإقناعهم بعدم جدوى المقاومة وبضرورة التفاوض معهم تحت خيمة السلام حيث سيقوم الأمريكيون بالتخلص من الهنود الخادعين والمخدوعين معا. وهذا ما جرى." (العكش، أميركا والابادات الثقافية "لعنة كنعان" الانجليزية، 2009) ومن أوائل هذه الابادات التي تم التدشين لها بمعاهدات سلام، هي مجزرة البيكو وآخرها كان مجزرة وونديد ني وفي كلتي المجزرتين وبينهما سلسلة لا متناهية من معاهدات السلام والاتفاقيات المصممة لخفض دفاعات أصحاب الأرض ومن ثم القضاء عليهم بدون رحمة وفي كل قصة عبر ودروس تنطبق على سياسة وعقلية الولايات المتحدة اليوم وتفسر نهجها في التعامل مع شعوب العالم.

أما في المرحلة التالية، فقد قام الأمريكيون بإنشاء مديرية الشؤون الهندية عام 1806 والتي ألحقت بوزارة الحرب الأمريكية وبعدها في عام 1869 ألحقت بوزارة الداخلية، وترأسها شخص هامشي من السكان الأصليين ولكنه كان يبالغ في تمأهيه وانغماسه في ثقافة الرجل الأبيض باسمه الجديد ومظهره والأهم في تأمره ضد شعبه خدمة للمستعمر، هذه المديرية تغير اسمها وأصبحت تعرف بمكتب الشؤون الهندية عام 1934، مارس هذا المكتب دور السلطة الفلسطينية اليوم في الضفة الغربية، وفي وقتها فهو ساهم في خطف الاطفال ، وان لم يقم بخطف الاطفال كان المكتب يجبر الاهالي على تسليمهم بالارهاب والعنف، واخفاء حقيقة الواقع المرعب الذي حل بهم في المدارس التي كان معدل الموت فيها 50%، وطبعاً كان يحرص على منعهم على ايجاد اطفالهم مدى الحياة، وعمل هذا المكتب على الغاء اكثر من 100 شعب أصلي معترف به وما لحق ذلك من نهب للثروات والأراضي، وعمل بكل حثيث على استكمال عملية التذويب والابادة الثقافية، كما ساعد على تعقير 42% من نساء شعبهم وذلك استمر حتى السبعينات من القرن الماضي، وغطى على دفن النفايات النووية في اراضي شعب النافاهو، كما ساهم في تحويل بعض مناطقهم الى حقول تجارب طبية بشرية كما حصل مع شعب الانويت، كل ذلك تحت شكل من اشكال الحكم الذاتي. (العكش، أميركا والابادات الثقافية "لعنة كنعان" الانجليزية، 2009) و (العكش، حق التضحية بالآخر أميركا والابادات الجماعية، 2002).

في أميركا اللاتينية شكلت النخب ذراعاً للاستعمار الاسباني، وشكلت طبقة مرتبطة بالمصالح والعلاقات بأوروبا وهذه التبعية جعلتهم غير معنيين ببناء أي صناعة أو تنمية حقيقية، زادت عمالة هذه النخب وتبعيتها بعدما تخلصت من الاستعمار الاسباني بمساعدة الصديق البريطاني، الذي أراد أن تكون أميركا اللاتينية سوقاً بديلاً يعوضه عن أميركا المستقلة عنه لا بل كانت السوق في أميركا اللاتينية أكثر انفتاحاً وانصياعاً وتبعية للبريطانيين من مستعمراتهم السابقة

(غاليانو ا، 2016)، وسأفصل ذلك أكثر تحت بند اختلاق الحروب، أما في سبعينات القرن الماضي وانطلاقاً من التشيلي تحديداً، شكلت مجموعة من الطلاب التشيليين الذين درسوا الاقتصاد على يدي ميلتون فريدمان وزميله، وموّلتهم وكالة الاستخبارات المركزية لاعداد مخطط اقتصادي مفصّل لهدم الاقتصاد التشيلي تحت عنوان الاقتصاد الحر والمنافسة والسوق المفتوح، الذي تسابقت البنوك الامريكية إليه لفرض القروض المربحة، حرية السوق التشيلي على يدهم وصلت الى حد يعترف فريدمان نفسه انه غير مطبق في الولايات المتحدة نفسها، هؤلاء رأوا أنه لا بأس بالاطاحة بحكومة منتخبة، عن طريق انقلاب عسكري وحشي، لا بل هم حضروا له وأقنعوا الجنرالات العسكريين بأنهم سيوفرون لهم الدعم والغطاء الايديولوجي والفكري لغسل دماء المذبحة التي سيقومون بها وبحكم الحديد والنار على البشر، الذي سيؤمن لرأس المال حرته المقدسة (Letelier, 1976)، هؤلاء أطلقوا موجة من الانقلابات العسكرية الدموية في القارة الجنوبية، وشرعوا اقتحام الشركات الأمريكية وعودتها في حالات كثيرة، وتفكيك مشاريع التأميم واعطوا لشركات التعدين ضوءاً أخضر لنهب المعادن واستعباد البشر وترك خزينة الدولة جوفاء وادعوا أن أفضل حل للترهل هو الخصخصة وبالخصخصة أفلست الدولة، فتخلت عن واجباتها تجاه المواطنين وفي ذات الوقت اقترضت من البنوك الأمريكية والمؤسسات النقدية الدولية بأسعار فائدة جنونية، أموال لم يصل نصفها إلى بلدانهم وأما النصف الثاني فتهمّ نهبه من قبل النخب، وهذا الدين الذي كانت بفوائده السرطانية أصبح هو الرصاصة المسلطة على رأس العملة الوطنية في حال فكّر أحدهم بالتححرر من السوق الحر. النخبة الخائنة هذه التي تدمر بلدانها، خدمة للمستعمرين تنال نفس القدر من الاحترام من قبل شعبها ومشغليها المستعمرين، فمن المعروف أن الولايات المتحدة دعمت حكم الديكتاتور المجرم سوموثا في نيكاراغوا، ومن المعلوم انهم كانوا يجدونه مجرماً بشكل مبالغ فيه، وعندما سئل روزفلت عنه أجاب: "نعم، انه ابن ***، ولكنه ان ال *** الخاص بنا".

دعم الثورات

ظاهرة دعم الثورات من الخارج ليست ظاهرة جديدة، يبدو أنها تعود إلى القرن الثامن عشر، ودعم الثورات في تلك الحقبة كان يتم بدعم واستضافة المعارضين السياسيين والقيادات الثورية، الى الدعم السياسي والمالي والعسكري، وحتى لو كانت الثورات هذه محقة، إلا أن بعض القادة الممولين من الخارج ساقوا الثورة لمصلحة داعمها الخارجيين. فالفرنسيون دعموا الثورة الامريكية على الإنجليز ضمن الصراع الاستعماري بين الامبراطوريتين، فرد الانجليز ودعموا الثورة الكورسيكية ضد الفرنسيين لتشكيل تهديداً للعرش الفرنسي، والحقيقة أن باولي قائد الثورة الكورسيكية كان منفياً في بريطانيا ومدعوماً منها، وهو شكل الشخصية التي ألهمت - للمفارقة- نابليون بونابارت، وبينما خسرت بريطانيا أسواقها في أميركا دعمت الثورة البوليغرافية ضد الاستعمار الاسباني في أميركا اللاتينية، وذلك لخلق أسواق جديدة، الفرق بين الاستعمار الاحلالي في شمال اميركا والنموذج الكمبرادوري في جنوبها جعل من الارجنتين والبرازيل أسواق أكثر من مثالية لبريطانيا (غاليانو ا، 2016)، أميركا بدورها دعمت الثورة الكوبية⁷ ضد الاستعمار الاسباني بهدف شن الحرب والاستيلاء على ما تبقى لأسبانيا من مستعمرات، خصوصا الجزر التي تقع في المجال الحيوي الأميركي كما الفيليبين التي تقع في المجال الحيوي الصيني، إذ رأى الأمريكيون أن الصين اذا استعادت استقلالها ستشكل تهديداً حقيقياً لمصالح الغرب، وعلى رأس هؤلاء كان الفرد ماهان المنظر الأول للتوسع الامريكي خارج القارة

7 في تلك الفترة كان الرأي العام منقسماً مع وضد الحرب، وبعض المعارضين على الحرب وظفوا الصحافة لعرض مآسي "الاخوة الكوبيين" ومعاناتهم تحت نير الاستعمار الاسباني المتوحش والظلم، وهذا حقيقي، لكن غير الحقيقي هو التعاطف، فمعظم المعارضين كانوا رجلاً بيض أثريا لهم مصالح، وعنصرين وينظرون للكوبيين نظرة فوقية لكونهم سمر البشرية، من بين هؤلاء ثيودور روزفلت، الذي في أول انزال له في خليج الخنازير، حاول معايشة احلامه الفروسية العسكرية وكان الانزال كله سيفشل من عدة فنانة اسبان، ولكن من انقذهم هم الثوار الكوبيون السمر الذين الذين كان ينظر لهم روزفلت بعرق همجي.

والسيطرة على البحار، وهو كمنظر للقوة البحرية وضرورتها لأمريكا اعتبر ان أمة بهذا الحجم (عن الصين) وبهذا العدد الهائل من السكان، والتجانس الثقافي، اذا استطاعت تعلم التقنية والصناعة الغربية ستسيطر على العالم لذا من الواجب تطويق مجالها الحيوي وخصوصا البحري (Sempa, 2014). وبعد سيطرة الأمريكيين على كوبا قاموا بتعيين الجنرال توماس استرادا بالما رئيساً بعام 1902 بعد أن تخلّى عن جنسيته الأمريكية حيث كان منفيًا، وكثائر نموذجي مدعوم من أميركا فتح أبواب كوبا للأعمال والمصالح الأمريكية "لدرجة أن السفير الأمريكي كان الشخصية الثانية في البلاد، وأحيانا يكون أهم حتى من الرئيس الكوبي" (غاليانو ا، 2016).

اليوم تعمل أميركا على خلق الثورات والتحركات والهويات المتنازعة والانفصالية والفوضى، ولا يهم إن كان هناك مطالب محقة يمكنها استغلالها، فهي تخلقها عند الحاجة، فبعد تجربة الانقلابات في أميركا اللاتينية ارتأت الإدارة الأمريكية أن عليها ان تكون اليد الخفية، ولا تكون هي في الواجهة، وهكذا من أفغانستان إلى البلقان ومرورًا بالربيع العربي، إلى حراك المثليين في روسيا، الى قضية انفصاليي الايغور في الصين الذين صنفتهم أميركا بإرهابيين، بقدرة قادر ومصالح أمريكية تحولوا إلى ثوار، وربما تكون بداية هذا التحول في دول حليفة للولايات المتحدة الأمريكية فرنسا وأستراليا، في الأولى يعتقد أن أميركا حرّكت الثورة الطلابية في أيار 68 ردًا على موقف ديغول من حلف الناتو عام 67، وفي أستراليا عملت أميركا وبشكل موثّق اليوم بوضوح على إسقاط حكومة العمال التي انتقدت الحرب على فيتنام، وتمتّت من كل الأطراف وقف العنف، هذا الموقف الواسطي غير الحاد أثار حفيظة الولايات المتحدة الأمريكية ضد هذه الحكومة ودفعها لخلخلتها واختلاق أزمات وتسعيها باستخدام الإعلام، وسقطت الحكومة عام 75 بشكل منافٍ للدستور فالولايات المتحدة لا تحترم سيادة الحلفاء قبل سيادة الاعداء.

خلق الحساسيات الطائفية والعرقية

من أفضل المداخل للمستعمر هي استغلال الحساسيات العرقية والطائفية، لا بل يعمل على اختلاقها إن لزم الأمر، كما حدث في حالة الهوتو والتوتسي في راوندا على أيدي البلجيكين والألمان من بعدهم ومن ثم الفرنسيين والبريطانيين، في حالة الهند هذه الحساسيات تم خلقها وإدارتها بشكل دقيق من قبل البريطانيين كما هو موضح في المقال الملحق. وفي حالة المكسيك، فان حضارة الازتيك وعاصمتها تينوشيتلان تم السيطرة عليها ب 16 حصانًا، وأكثر من 500 جندي بقيادة هيرناندو كورتيز، في ذلك الوقت كانت عاصمة الازتيك أكبر من مدريد بخمس مرات (غاليانو ا، 2016) بفضل استطلاع الجيد، استطاع كورتيز من اكتشاف ان مملكة الازتيك هي المكان المنشود لنهب الذهب، واكتشف العداوة بين الازتيك والتلاكسكالا الذين تحالف معهم وبدونهم لم يكن من الممكن له أن يدمر حضارة من أعرق وأضخم حضارات القارة بقوة صغيرة بذلك الحجم، استغلال الحساسيات البينية يتطلب معلومات دقيقة، وهو ما توفّره علوم كالاستشراق والانثروبولوجيا اللذين كان من دوافع انشائهما دراسة الشعوب للسيطرة عليها، مع العلم أن الباحث الغربي لطالما أعماه غروره، وتسببت نظرتة الاستعلائية بنوع من التعميم والأحكام المسبقة، التي تسببت في كثير من الأحيان من الحط من قدر الشعب المستهدف بحيث لا يؤدي العلم هذا دوره وبناء عليه يتم اتخاذ سياسات معيّنة بحقه تؤدي نتيجة معاكسة، وهنا اليوم نجد أن المنظمات الانسانية والبعثات الدراسية والجامعات الغربية، عندما تهتم بجمع المعلومات عن مجتمع ما، يهملها أن تكون علاقات مع المحليين وأن يكون هناك باحثون محليون في فريق البحث ليعطي نظرة أعمق وأدق تساعد على تحليل ومعرفة المجتمع المستهدف بأقل تحيزات معرفية ممكنة⁸.

⁸ هنا اشكالية التحيز المعرفي، وبفضل التدخل الاستعماري والهيمنة الثقافية ينتقل من الباحث الغربي الى المخبر المحلي، الذي في النهاية بتأثره في الثقافة الغربية وهيمنتها، ينتهي به الأمر باستبطان النظرة الفوقية الاستعلائية الغربية نحو مجتمعه، ويجتر الكثير من التعميمات والاحكام المسبقة، التي يحاول الغرب تجنبها بتوظيفه كعنصر وعين محلية.

اختلاق الحروب

إن اختلاق حرب قد يهدف لتحقيق غايات مختلفة، مثلاً الحرب الإيرانية العراقية، هدفت للقضاء على الثورة الإيرانية بالوكالة لصالح أميركا والعدو الصهيوني أولاً ومن ثم ممالك الخليج، أما العراق بشكل موضوعي لم يكن بحاجة إلى تلك الحرب، ويمكن أن تختلق الحرب من أجل استنزاف بلد ما في حرب داخلية، ودوامة عنف متفלת وحالة فوضى تسمح بنهب موارده دون محاسبة كما هي الحال مع الكونغو، ويمكن اختلاق حرب لتدمير مجموعة دول وتوريثها بتبعية طويلة المدى كما حصل في أميركا الجنوبية بعد الاستقلال 1810.

منذ البداية كانت بريطانيا تسعى للهيمنة الكاملة على الأسواق في جنوب القارة، هذه البلاد كانت مستعمرات تحكمها أوليغاركية مرتبطة بإسبانيا (وبالبرتغال في حالة البرازيل) وهي لم تكن معنية مع دول المركز بإنتاج صناعات محلية متقدمة، ولا حتى اقتصاد زراعي متكامل، بل ارتكز الاقتصاد على زراعات ال (Cash Crops) من بن كاكاو وقطن وسكر وغيره من محاصيل استنزفت التربة وتسببت بمجاعات وتدمير مجتمعي متكرر من جهة أخرى، وارتكز أيضاً على التعدين بالإضافة إلى بعض الصناعات المحلية البسيطة التي كانت سمحت لها بعض السياسات الحماية بالظهور، وهكذا كانت القارة الجنوبية سوقاً مثالياً للبريطانيين، اللذين انتعشت مرافئهم ومصانعهم وبنوكهم بفضل هذا السوق بعد الاستقلال، وقد كان الوكلاء التجاريون البريطانيون يجوبون البلاد بطولها وعرضها ويصلون إلى أقاصيها لعمل نماذج للملابس التقليدية والأدوات المستخدمة بهدف استنساخها وتصنيعها وبيعها لأهل البلاد، وهكذا لم يفوت البريطانيون أي فرصة استثمارية تذكر، تم إسقاط كل الحواجز الضريبية وفتح كل الأسواق في وجه البريطانيين اللذين كانوا يمارسون أقصى سياسات الحماية لبضائعهم، إلى أن ضمنوا تفوقهم على المنافسين أصبحوا يدافعون عن الأسواق الحرة بالحديد والنار كما سنرى.

على المقلب الآخر وفي نفس الحقبة التاريخية كانت البراغواي استثناء في قارتها، بقيادة الرئيس غاسبار رودريغيث دي فراثيا (1814-1840)، كانت الدولة الوحيدة التي تملك اكتفاء ذاتياً بعيداً عن التجارة الاطلسية، وبها صناعات محلية، وبحسب عميل أمريكي فإن لم يوجد أطفال أميون في البراغواي وقتها، استعان رودريغيث بالجماهير الفلاحية لمحاربة الطبقة الأوليغاركية وحكم حكماً "ديكتاتورياً" باسمها، وحتى عام 1865 كان في البراغواي علاوة على الصناعات المتعددة، سكك حديد وخطوط تلغراف مسابك ومعامل صلب وأسلحة ومدافع وذخيرة، ومع تصدير بعض المنتجات الزراعية والأخشاب كانت الميزان التجاري يحقق الفوائض والعملية الوطنية قوية ومستقرة، وكان لديها أفضل جيش في القارة وكانت الدولة توظف الفنين البريطانيين لخدمتها، بدل أن تضع نفسها في خدمتهم، وابتعث الطلاب لأوروبا للتعلّم لأجل بناء الدولة.

تم تأمين الأراضي واحتكار ملكيتها للدولة، وإعطاء المزارعين الأراضي للزراعة بدل الملكية، وتمت استعادة التقاليد الزراعية القديمة، بالإضافة إلى إقامة المزارع الوطنية الضخمة التي كانت تديرها الدولة، وتم بناء شبكات ري وسدود وقنوات ومواصلات وجسور، اعتمدت سياسات حمائية متشددة وأغلقت الممرات المائية بوجه التجارة الدولية. أما الفائض الذي أنتجته هذه السياسات لم يتم تبديده في التبذير والاستهلاك، ولم تقترض الدولة ليتم نهبها بالفوائد وبهذا فإن هذا الفائض لم يجبر إلى جيوب المستعمر الأوروبي، فكان لا بد من تدمير هذا النموذج الاستثنائي في محيط استباح البريطانيون كل صناعاته وزراعاته وفوائضه وقمعت الثورات وارتكبت المجازر للحفاظ على البريطانيين كأصدقاء ساعدوا في الاستقلال من الاستعمار القديم، لأن هذا النموذج كان فضيحة للآخرين، وفضيحة أكبر للبريطانيين، وعليه شنت حرب التحالف الثلاثي المكون من الأرجنتين والبرازيل والاوروغواي.

الرابح النهائي والحقيقي لهذه الحرب كان، التجار والبنوك البريطانيون، اللذين مولوا التحالف (بنوك لندن والاخوة بارينج وروتشيلد)، عن طريق الديون التي رهنهت اقتصادات الدول الثلاث ولا تزال ترهق الأرجنتين، أما المخطط الحقيقي للحرب هو الوزير البريطاني إدوارد ثورنتون الذي كان يجلس بجانب الرئيس الأرجنتيني داخل جلسات مجلس الوزراء وهو الذي حاك هاك التحالف وأدار اللعبة، تم تشويه صورة الرئيس البراغواي وتشبيهه بأتيل،

واعتباره بأنه انتهك كافة أعراف الدول المتحضرة، شنت علي البراغواي ورئيسها حملة تشويه وإسقاط شبيهة بالتتي شنت على سوريا، فتحوّلت بلحظة دولة مكتفية ذاتياً، البلد يحكمها طاغية العصر وسفاح القارة وأصبح من الواجب الاخلاقي سحقه "الرئيس لوبيث"⁹ كما تسحق الزواحف.

دامت الحرب خمس سنوات، وقاتل فيها الشعب والجيش، وكانت المجازر مروّعة إلى درجة أنه لم يبق في الباراغواي إلا أقل من سدس سكانها بعد الحرب، وسرقت مساحات شاسعة من أراضيها لمصلحة الأرجنتين والبرازيل، كما فتحت أسواقها وفرضت عليه القروض البريطانية التي لم تكن يصل نصف قيمتها للبلد، والتي تضاعف حجمها بفضل إعادة التمويل أربع مرات خلال سنوات قليلة (غاليانو ا، 2016)، وهكذا فقد ربط مصير أربعة بلدان للخارج عن طريق حرب عبثية بين الأخوة، خرج فيها المنتصر خاسراً ومديناً أكثر، والخاسر مهشماً لمصلحة ثلة من التجار والبنوك البريطانية.

⁹ الرئيس فرانسيسكو سولانو لوبيث، وهو الرئيس البراغواي الذي تلا رودريغيث وقاد المقاومة في وجه التحالف الثلاثي

BE SURE TO ASK FOR THE SUPPLEMENT.

ALFRED
HENRY
LEWIS,
Editor.

THE VERDICT

VERDICT
PUBLISHING
COMPANY,
BY
O. H. P.
BELMONT,
President.

VOL. II. No. 10.

NEW YORK, (FOR WEEK ENDING) AUGUST 21, 1899.

PRICE, 10 CENTS—20 PAGES



THE WAY WE GET THE WAR NEWS.

THE MANILLA CORRESPONDENT AND THE MCKINLEY CENSORSHIP.

2. نكث غزل الاقتصاد

إن تدمير اقتصاد مجتمع، عملية بسيطة ومعقدة في ذات الوقت، فالاقتصاد لدولة ما هو نسيج من العلاقات والمصالح والآليات الداخلية والخارجية التي توظف الموارد البشرية والمادية والقدرات والخبرات لخدمة فئات معينة، وعند استهداف اقتصاد ما، فإنك تستهدف هذا النسيج، وبقدر تعقيد علاقات هذا النسيج وتنوعها يكون متيناً يصعب تدميره، أما الاقتصادات أحادية الاعتمادية، والتي ترمي بثقلها على ركن أو قطاع واحد، وخصوصاً إن كان ريعياً يعتمد على السوق الخارجي، أو خدمياً أو سياحياً يعتمد على الاستقرار والعلاقات السياسية المداهنة، فيكفي قطع خيط واحد من خيوط هذا النسيج لينثال غزله بشكل كامل، ولهذا فإن الاستعمار وفي مقدمته الولايات المتحدة الأمريكية، يسعى إلى إعادة نسج الدول التابعة ليصبح أحادي الاعتمادي لربطه بها بشكل مباشر وليكون هشاً يسهل كسره، وليشكل رباط خانق على القرار السياسي لهذه الدول، وفي حالات معينة حين تحتاج الولايات المتحدة دولة قوية اقتصادياً كنموذج رأسمالي قوي يواجه الشيوعية تدعمه لكن ليس للحد الذي يمكن أن ينافس مصالحها الاقتصادية، مثل اليابان فهي تساعد هذا النموذج إلى أن يصبح منافساً لها، ولكن عندما تفوق عليها صناعياً خصوصاً في مجال صناعة الإلكترونيات، فقد أجبرت أميركا اليابان في الثمانينيات على أن ترفع قيمة عملتها الوطنية، لتصبح المنتجات الإلكترونية اليابانية أغلى من منافساتها الأمريكية وتخرج من أسواقها، من الصعب شرح كل تبعات هذه الخطوة على الاقتصاد الياباني ولكن يكفي أن نقول أن التبعات هي سبب التضخم وأزمة التقاعد وارتفاع أسعار العقارات وتراجع الصناعات إلى اليوم، نموذج آخر سأقوم بذكره فقط، إلا أنه يستحق الدراسة والتعمق ألا وهو بورتو ريكو والتبعية الاقتصادية المتطرفة فرضتها الولايات المتحدة على الجزيرة.

من الإنتاج إلى المضاربة

يتكرر التدخل الاستعماري تدمير الإنتاج الصناعي للبلاد، لفتح أسواقها لمنتجاته من جهة ولكي يقوّض قدرتها على النهوض والمنافسة والاستقلال من جهة أخرى، وبين مثال البراغواي وعدوان التحالف الثلاثي ومثال الهند في الملحق الكثير من الأمور المشتركة، وهما مجرد مثالين في بحر من نفس النمط المستمر إلى هذا اليوم، الفارق اليوم أن الغرب ومن بينه أميركا هو نفسه خسر الكثير من صناعاته لصالح الصين ونزح باقتصاداته نحو الاقتصاد المالي وأرباح المضاربة في قطاعات مثل العقارات والبورصة وغيرها، وهذا جاء كنتيجة غير مباشرة لتحول الدولار إلى عملة غير مدعومة بالذهب وتبعية الاقتصاد العالمي للدولار، فهذا خلق قدرة غير مسبوقه لأميركا على طباعة الدولارات بدون حساب وأدى إلى تضخم الأسواق المالية، كما أدى إلى تضخم الصناعات العسكرية في أميركا، كقطاع إنتاجي يبحث عن سوق، وليس كقطاع مرتبط بالسياسات الدفاعية للولايات المتحدة، وهذا الانقلاب يجعل من أميركا قرصان عالمي بحسب الباحث الاقتصادي الأمريكي مايكل هيدسون.

فتح الأسواق والتجارة الحرة

تعد حرب الأفيون أحد أهم الأمثلة التاريخية لنفاق فلسفة فتح الأسواق والتجارة الحرة، فبريطانيا لم تجد أي سلعة مرغوبة من إنتاجاتها في الصين ولذلك لجأت إلى زراعة الأفيون، الذي يخلق الطلب عليه بسبب وباء الأدمان، وبريطانيا بدورها كانت تمارس سياسات حمائية تجاه منتجاتها المعرضة للمنافسة من الخارج كلما اقتضى الأمر، خصوصاً صناعات النسيج، وهنا أيضاً في ملحقات الهند مثال جيد على تدخل الدولة الاستعمارية في السوق لتدمير

الصناعات المنافسة كلما ناسب الأمر الصناعيين البريطانيين. ووقع كلينتون اتفاق التجارة الحرة لشمال أمريكا (نافتا) لكي يؤمن اليد العاملة الرخيصة عبر الحدود وقد تم الاتفاق بحماس مشترك من قبل الجمهوريين والديمقراطيين، ولكن التجارة لم تكن حرة في وجه محاصيل البندورة التي حاولت المكسيك تصديرها الى أميركا، وعندما سئلت مادلين اولبرايت عن النصف مليون طفل الذي ماتوا في العراق بسبب الحصار الخانق والذي انتهك قوانين التجارة الحرة قبل المواثيق الدولية، ومنع الغذاء والدواء عنه، أجابت أنه نعم، كان الأمر يستحق ذلك (Zenn, 1980)، لذا فلاسواق مفتوحة والتجارة حرة باتجاه واحد، بالاتجاه الذي يصرف المنتجات الأمريكية والغربية ويحقق مصالحها، وغير ذلك فلا حرية تجارة ولا حرية أسواق.

ديون الافراد واقتصاد الدولة

يعد مايكل هدسون من الباحثين الاقتصاديين المميزين عن الخط العام في الاقتصاد الأمريكي، فهو ينتقد التدريس الأكاديمي للاقتصاد لأنه يعتبر أن نظريات الاقتصاد الرأسمالية التي تدرس في الجامعات الأمريكية أقرب للأدب منها للعلم، ويقول أيضاً بأن هناك تركيزاً على تدريس النظرية واهمالاً لتدريس التاريخ في مجال الاقتصاد وذلك مقصود، لأن دراسة تاريخ الاقتصاد سيدلل على بطلان النظريات الاقتصادية التي تعتمد كحقائق لا تقبل الشك او الدحض، ولدى المؤلف العديد من الكتب المعنية بالدين والسياسة وسياسة الدين وتأثير الديون ودورها في الهيمنة الدولية، أحده كتبه عبارة عن بحث تاريخي اركيولوجي وانثروبولوجي يبدأ كعمل لدراسة الاقتصاد منذ العهد السومري، وهو تحت عنوان "اغفروا لهم دينهم" (Hudson, ... and forgive them their debts: Lending, Foreclosure and, 2018) ويركز بشكل خاص على مسألة التشريعات القديمة التي كانت مصممة للحيلولة دون التراكم المالي لطبقة دون أخرى عن طريق الدين، وكيف أن الاديان يفترض بها أن تكون ورثت هذه التشريعات، وهنا سأركز على الديون الفردية واثرها في سياسة الدولة والاقتصاد بشكل عام، فهو يستعرض كيف ان السومريين اتبعوا سياسات مدروسة مبنية على حسابات دقيقة توضح أن النمو الطبيعي سيكون دائماً أبطأ من نمو الدين، ولذلك فيجب على المجتمع الغاء الديون الفردية بشكل دوري، والا فإن تراكم الثروة بيد قلة سيثقل عجلة الاقتصاد ويهين غالبية الشعب للعبودية ويفتح باباً للعنف الاجتماعي، وفي معرض الحديث عن هذا الكتاب يقول أن المعجزة الاقتصادية الألمانية ما كانت لتحصل لولا أن الحلفاء قاموا بمحو الديون عن كاهل الافراد والشركات، وبما انها كانت تعود للرايح وبالتالي فان شطبها كان سهلاً، وبهذا تحرر ملايين الالمان من عبء الدين واستطاعوا العمل والنهوض بالاقتصاد، ومن خلال قراءة كرونولوجية عبر العالم القديم يعدد الباحث أهمية الغاء الديون الفردية في الاقتصادات القديمة لأنه في النهاية يخلق طبقة ربوية فاحشة الثراء ولكنها غير منتجة ويفصل كيف أن الحضارة الرومانية بالذات تمايزت عن بقية الحضارات السابقة لها بترك هذا الممارسة من الشطب الدوري لهذه الديون، ويرى أن ذلك كان أحد أسباب سقوطها، وأن استمرار العمل بهذا التقليد في الشرق سمح للقسطنطينية بالاستمرار لخمس مئة عام بعد سقوط روما، ويضيف أن هذه الطبقة من الاثرياء اليوم لضمان أرباحها، تعمل على رفع كلف الخدمات التي تهيمن عليها، وهذا بدوره يرفع كلفة المعيشة من ايجار وصحة وتعليم، وكل هذا يؤدي بالمواطنين الى المزيد والمزيد من الدين، وكل هذه العوامل مجتمعة تؤدي الى اعاقه خلق مجتمع صناعي فيه يد عاملة متوسطة الدخل، متعلمة تعيش في مستوى معيشي جيد أو مقبول وتستطيع انتاج بضائع بسعر معقول للسوق المحلي والخارجي، هذه الأزمة هي أزمة

غربية في أمريكا وأوروبا واليابان، ولكن أيضاً المنظمات الدولية التابعة لها تحرص أن يتورط أكبر عدد من الدول في هذا المأزق.

الدولة المدينة

يمكن اعتبار الدين العابر للدول ظاهرة تعود الى عصر النهضة، وحيث أن الظاهرة نتجت عن عمليات اقراض كبرى للملوك والحكام لتمويل حروبهم المكلفة، كان يحصل أن يتم اعلان حرب بتحريض من المقرضين لانعاش أعمالهم وتحقيق مصالحهم، ولكن الفرق اليوم أن القروض العابرة للدول تتم بين دول او مؤسسات دولية تهتمين عليها الدول الغربية ودول أطراف تزرع تحت الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية الغربية في كثير من الاحيان، وبين هاتين المرحلتين يمكن ارجاع ظاهرة الاقراض بين الدول الى القرن التاسع عشر، ويلحظ الباحث باري ايخينغرين (Eichengreen, 1991) ان الاقراض الدولي في ذلك الوقت تركز في دول أمريكا اللاتينية بالذات وانها كانت تواجه دورات متتالية من تسارع وتباطؤ النمو وأن هذا الدورات تلازمت مع موجات الافلاس كل عقد أو عقدين، وانه بالرغم من هذه التقلبات حافظت لندن أولاً ومن بعدها باريس وبرلين على حيويتها في كأسواق للبورصة والمضاربة، ومن خلال هذه التقلبات الحادة بدأت تبرز سوق نيويورك للبورصة في الصدارة العالمية، كما أن الولايات المتحدة الامريكية تحولت من دولة مقترضة الى دولة مقرضة، ومع بداية الـ 1890 بدأت الاصول الامريكية في الخارج تزيد عن التزاماتها الخارجية، وهكذا بدأت تصعد على المسرح العالمي وتنافس لندن كمركز مالي عالمي، واستمرت اميركا بالاستفادة من التقلبات في الاسواق المالية لتركيز الثروة والسيطرة على المقدرات في الدول المدينة.

أما كيف صعدت لندن كالمركز الاول عالمياً لتجارة البورصة والاسهم فكتب وزير خارجية فرنسا في عهد لويس الثاني عشر تقريراً حول استقلال دول أمريكا الجنوبية من الاستعمار الاسباني، "لقد تحولت المستعمرات الاسبانية في ساعة التحرر الى شيء شبيه بمستعمرات بريطانية" وأضاف أنه تم منح هذه الدول عشرة قروض قيمتها الاسمية 21 مليون جنيه استرليني، الا ان الذي وصل هو ثلث هذه القيمة، وتم انشاء اربعين شركة مساهمة في لندن لاستغلال الموارد الطبيعية والزراعة والبنية التحتية، وتم انشاء 48 بنكا في عام واحد، كان بنك اوف انجلند يمول خزانات الحكومات وكانت تجارة السندات العامة اللاتينية مزدهرة في السوق المالية البريطانية، وانفقت هذه الدول بسخاء على جيوشها في الوقت الذي كانت ميزانياتها تواجه العجز، وانفجرت حمى الاستيراد واستهلاك الكماليات، وكانت الديون تتراكم لتمويل الترف المستورد، وفي عام 1824 وقعت تلقت الارجنتين أقل من 60% من القيمة الاسمية لقرض بقيمة مليون جنيه استرليني من بنك بارنغ براذرز، ولكن حتى هذه الستين بالمئة التي كان يجب ان تستلمها كعملات ذهبية بموجب العقد، استلمتها على شكل حوالات لطلبات مرسله لرجال أعمال بريطانيين في بوينس ايريس، وهم كانوا مهتمهم تحويل المعادن النفيسة الى لندن، وبهذا دفعت الارجنتين "ذهباً مقابل الورق"، وهذا الدين تضخم بعمليات اعادة التمويل الى حد الـ 4 مليون جنيه وطالت مدة هذه الورطة الى ثلاثة ارباع القرن واضطرت بوينس ايريس الى رهن كل ايراداتها وممتلكاتها وارضيتها ضماناً للسداد، واستخدمت بريطانيا هذا الدين لابتزاز الارجنتين واجبارها على قبول شروطها في التجارة الخارجية (غاليانو ا، 2016).



أميركا بدورها بدأت باستخدام الديون كأداة هيمنة بعد العام 1803 من قبل الرئيس جيفرسون¹⁰، الذي شجع على اقراض السكان الاصليين ليقوموا بشراء اراضي بمساحات صغيرة، وطلب من الكونغرس ان يتم تشجيعهم على الاقتراض والدين من المستعمرين، ليتم توريطهم وتجريدهم من قطع الاراضي الصغيرة تلك أيضا، وكما المذكور اعلاه فان اميركا تدرجت كقوة مالية بشكل تصاعدي الا أن القفزة الكبرى كانت بعد الحرب العالمية الثانية، فان كانت بريطانيا ورثت تركة الاستعمار الاسباني بدعم الثورات، واميركا فعلت نفس الشيء لوراثة القسم الباقي، فان اميركا ورثت مستعمرات بريطانيا بفعل دعم جهود الحرب البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية، ففي الوقت الذي شهدت في أميركا صراعاً مرة أخرى حول طبيعة هذه الدولة وحول وجوب انكفائها على الداخل أم سعيها للتوسع والتدخل في الصراعات الخارجية، فإن الرئيس الامريكي استغل هذا الصراع، للضغط على البريطانيين والتفاوض معهم حول ثمن هذا التدخل، ونتج عن عقود "الاعارة-الايجار" (Super Imperialism, Hudson, 2003) التي أمنت الدعم اللوجستي الذي ابقى بريطانيا على قيد الحياة خلال الحرب، وقبل تدخل أميركا العسكري، فالنتيجة النهائية له وللتدخل الامريكي كان تنازل بريطانيا عن احتكارها التجاري لمستعمراتها، الامر الذي اصرت عليه أميركا كثمن لهذا

¹⁰ كان جيفرسون يريد التوسع غرب الميسيسيبي، فمُنذ هزيمة نابليون وعجزه عن استعادة هايتي اضطر لبيع لويزيانا للأمريكيين الأمر الذي فتح جبهة الغرب الأمريكية على مصراعها، ولأن السكان الاصليين الذين كان يستهدفهم هنا كانوا من الصيادين، فان موطنهم ومجالهم الحيوي كان يشكل مساحات شاسعة من الاراضي، ولذا رأى ان تشجيعهم على امتلاك الارض والزراعة سيقصص المساحات المتنازع عليها والتي سيجب عليهم المحاربة لأجلها بشكل ضخم.

الدعم والتدخل، تحت عناوين غاية في الانسانية ومعاداة الاستعمار والهيمنة، ولكن في المفاوضات أميركا كانت واضحة فهي تريد الاسواق والثروات والهيمنة على البحار وهذا ما حصلت عليه مع نهاية الحرب.

يتحدث مايكل هدسون، "الامبريالية الفائقة" (Hudson, Super Imperialism, 2003)، عن شبكة علاقات تخلقها الهيمنة الأمريكية على الاقتصاد العالمي أركانها المؤسسات الدولية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة الحرة، ومنظمات ومؤسسات المساعدات والتنمية، ومرجعية الدولار في التجارة العالمية والهيمنة ضمن آليات التبادل التجاري العالمي، وحقيقة أن المجمع الصناعي العسكري تحول من خادم للمصالح الاقتصادية الأمريكية، الى محرك للاقتصاد يشكل مساره بحسب مصالحه، وبهذا تشن الحروب لأجل مصالح الولايات المتحدة الأمريكية الاقتصادية التي يقع في قلبها مصالح هذا المجمع، وهكذا فان أميركا تلعب دول القرصان الدولي على الاقتصاد العالمي.

يرد في الكتاب كيف أن أميركا تراجعت عن فكرة منظمة التجارة العالمية ITO في نهاية اربعينيات القرن الماضي لسببين أساسيين، الأول أنها لم تكن تريد الالتزام بقوانين التجارة الحرة بشكل فعلي، بل كانت تريد ضمان وجود منظمة تتيح لها فتح اسواق العالم وحماية مصالحها لا غير، ولذلك فان وجود منظمة تفرض قوانين تجارة حرة صارمة على كل الاعضاء لم يكن من مصلحتها، خصوصاً ان لم تضمن هيمنتها الكاملة على القرار فيها فقد عبر الدبلوماسيون الأمريكيون عن قلقهم لعدم تمكن أميركا على ضمان غالبية الاصوات واحتمالية أن تضطر أميركا الى الالتزام بقرارات الدول الأخرى، فقانون 1945 لبنك الاستيراد والتصدير خالف مبادئ منظمة التجارة العالمية بشروط 3 وضعها للقروض التي يمكنه اصدارها، الأول أن القروض كانت مشروطة، بحيث تجبر المدينين على صرفها في الولايات المتحدة الأمريكية ولغايات محددة فقط، وذلك لم يكن منصوصاً في القانون ولكن مسؤولي البنك تصرفوا لخدمة وتسهيل التصدير من الولايات المتحدة، أما الشرط الثاني فهو منصوص عليه بقانون أقره الكونغرس، بوجود شحن أي بضائع يتم شراؤها بقروض حكومية أمريكية باستخدام سفن أمريكية، الا اذا لم تكن تلك السفن متوفرة أو ممكنة، اما الثالث فهو نتيجة تطبيق كامل نص القانون فان الطلب سيزيد من الطلب على الدولار في وقت كانت الطلب على الدولار مرتفعاً أصلاً.

ومن ناحية أخرى أدى اعلان الحرب على كوريا الى ضرورة التراجع عن هذه الفكرة، لما لها من قيود اقتصادية تعطل تنظيم الحكومة الأمريكية وتحشيد اقتصادها لخدمة الحرب وما يتطلبه ذلك من تحكم حكومي بالسلع الاستراتيجية وتحكم بالاسعار وغيره من الاجراءات التي بدونها ستتم اعاقه قدرة أميركا العسكرية. وهكذا فإن الولايات المتحدة الأمريكية عطلت انشاء منظمة التجارة العالمية، واستبدلتها باستخدام مكاتبها في جنيف، وباستخدام الطاقم الاداري لتلك المؤسسة التي كانت قيد الانشاء وبالاعتماد على مسودات قوانينها تم انشاء منظمة تناسب حاجات أميركا وهي الـ GATT والفارق الأساسي هنا، هو ان هذه المنظمة عملت على رفع الرسوم الجمركية وعقد الاتفاقيات التجارية بشكل ثنائي بين الدول، بحيث تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية ضبط العلاقات الاقتصادية والتجارية والمالية مع كل دولة على حدة بما يخدم مصالحها.

في المقابل لم تكن الولايات المتحدة ستقبل بوجود صندوق النقد الدولي والبنك الدولي لولا أنها ضمنت تحكهما في قراراتهما، فمنذ لحظة اطلاق فكرة انشائهما انفردت الولايات المتحدة بتقرير موقعهما، الذي طالبت دول مثل فرنسا وبريطانيا والهند بوضعهما في نيويورك بالقرب من الأمم المتحدة، ولكن الرئيس الأمريكي أصر على أن وضعهما في نيويورك يعني أنهما سيكونان خاضعين لمصالح وال ستريت الخاصة، ولتفادي الوقوع في هذا المأزق يجب أن يكونا في واشنطن وهذا ما جرى، أما كيف ضمنت أميركا فرض قرارها، في حالة صندوق النقد الدولي مثلاً، المسألة أن الاصوات حددت بحسب الحصة المالية لكل دولة، وذلك عبر سلسلة من التعديلات فاوضت عليها أميركا، فبالأصل كانت الحصص ستحدد بناء على احتياطي الذهب، والدخل القومي عام 1940 و وحجم التجارة الخارجية بين الاعوام 1934-1938، بالإضافة الى تقدير للثقل السياسي، ومع تحول معايير تقدير أصوات الدول بحسب مساهماتها النقدية وبما أن حصة أميركا كانت الأكبر ضمنت أنها تسيطر على قرار هذه المؤسسة ولو لم تضمن ذلك لكانت خربت كما قامت بتخريب منظمة التجار (2.75 بليون من أصل 7.3 بليون / ضعف حصة بريطانيا ثاني أكبر عضو بعدها والتي حاولت التقارب مع حصة أميركا من خلال مساهمات الكومونويلث والمستعمرات وعلى رأسها الهند). وقد عرض مشروعاً البنك الدولي والصندوق على الكونغرس الأمريكي على انهما سيعملان على توفير سيولة بقيمة 10 بليون دولار بهدف الاستيراد من أميركا.

كل هذه الشواهد هي دلائل على أن هذه المنظمات تهدف لخدمة مصالح أميركا منذ انشاء فكرتها، أي قبل انشائها الفعلي حتى، وتدلل هذه الشواهد أيضاً على كيفية تعامل أميركا مع حلفائها قبل الخصوم عندما يتعلق الامر بالمصالح المالية لأميركا.

الدين البغيض

بالنظر الى تاريخ الديون بين الدول، ومدى اجحافها ونهب الممنهج الذي تقوم به، يبدو أن الدول المقرضة لا تقبل بأي مقاربة أخلاقية ووطنية فيما يخص القروض والسياسات المالية، وهذا صحيح الا عندما تصبح هذه الدول هي المسؤولة عن هذه الديون، فبالنظر الى تاريخ بريطانيا في الاقراض في الهند وأميركا اللاتينية، فهي من السابقين لرفض دفع الديون التي تراها مجحة، أو ما أصبح يسمى اصطلاحاً بالدين البغيض (Paulus, 2008). (Howse, 2007)، وذلك بعد انتصارها في حرب البوير رفضت دفع الديون المترتبة على جنوب افريقيا، وكذلك الأمر بالنسبة لأميركا عند احتلالها لكوبا وتكساس، فهي رأت أن الديون المترتبة على حكومات ممتلكاتها الجديدة، غير قانونية لأنها تم صرفها من حكومات غير شرعية ولا تمثل مصلحة الشعب ولا تمثل قراره، هذه الدول هي نفسها التي شنت حروب تحت لاحتلال دول تحت حجة حماية حقوق مواطنيها المقرضين كما في حالتي المكسيك¹¹ وهايتي (Tousaint, 2017)، مفهوم الدين البغيض تطور منذ ذلك الحين، وتوسع ولكن خطوته العريضة واضحة، اذا أعطي الدين بهدف ايقاع المستدين في دوامة من الاستدانة، أو اذا اعطي لجهة لا تمثل الشعب ولا مصالحه واذا خصص لغايات لا تخدم مصالح هذا الشعب، فيمكن اعتباره ديناً بغيضاً ويمكن المطالبة والادعاء للحكومة المعنية بعدم وجوب دفعه، ان لم

¹¹ في حالة المكسيك تم اعطاء الجنسية البريطانية (أيضاً فرنسا واسبانيا فعلتا ذات الشيء) لمواطنين مكسيكيين من المالكين الكبار لسندات الدين العام المحلي، وبالاحتيال والضغط فرضت على المكسيك القبول بشرط معاملة سندات هؤلاء على أنها ديون خارجية، مما أعطى الذريعة لشن الحرب على المكسيك واحتلالها عندما تعثرت في الدفع.

يكن التعويض عن الخسائر التي تسبب بها، ولكن هذا لا ينطبق على دول العالم الثالث اليوم فعندما تحدث اخصائي أمريكي في أحد منظمات الأمم المتحدة المختصة بالتنمية (مايكل هيدسون نفسه) في مؤتمر هذه المنظمة UNITAR في المكسيك عام 1980، وأوضح ان ديون العالم الثالث لا يمكن دفعها، لا بل يجب شطبها، لانها بمعظمها صرفت لضمان تبعيتها الاقتصادية وليست معنية باعادة هيكلة الاقتصاديات لهذه الدول بحيث تصبح قادرة على الدفع (Hudson, Killing the host, 2015)، وأن اجراءات التقشف والخصخصة وتشذيب أو تذويب القطاع العام سوف تزيد الأمور سوءاً، اندلع الشغب في المؤتمر، خصوصاً من ممثلي بنوك وال ستريت، وبالنسبة لهيدسون الشغب ليس لأن هؤلاء لا يعلمون بأن هذه الدول لا يمكنها الدفع وستضطر لاعلان افلاسها، بل لأنهم يعلمون ذلك جيداً وينكرونه لأنه يخدم مصالحهم في لوم الدول المفلسة على أوضاعها الاقتصادية المزرية بعد أن تم استنزافها بحرفية. وفي العام 1987 حاول توماس سانكارا، رئيس بوركينا فاسو، قيادة الدول الافريقية وتشكيل جبهة موحدة للامتناع عن دفع الديون التي تخنق هذه الدول، وقال في مؤتمر منظمة اتحاد الدول الافريقية ان اصل الدين يعود الى الاستعمار، ولأن هذه الدول ليست مسؤولة عن هذه الديون، تماماً كما ادعت أميركا وبريطانيا في كل من جنوب افريقيا وتكساس وكوبا، فان الدول الافريقية يجب ان لا تدفع هذه الديون، ما قاله سنكارا كان خطيراً لدرجة أنه تسبب باغتياله، من قبل رجال عصابات مرتبطين بحيتان النفط في ليبيريا¹² ومرتبطين بالطبع بالمصالح الغربية، لأنه بحسب تعبير أحدهم أصبح ينحو نحو اليسار (Pershad, 2020).

المشاريع التنموية والبنية التحتية

في كتاب الحقد على الغرب، يفسر جان زيلغر للأوروبيين كمسؤول أمريكي أوروبي سابق لماذا تحقد دول الاطراف وشعوبها على الغرب، ويقرّ بأن المؤسسات الدولية لها دور فاعل في الهيمنة، وأنها حين تمول مشاريع بنية تحتية، فهي تمولها بقروض بقوائد غير عقلانية وعلاوة على ذلك فإنها عادة تكون بنية تحتية للنهب والسرقة والهيمنة والاستعمار، في كتابه يوضح مثال نيجيريا، وفي المقال الملحق هناك مثال سكك الحديد في الهند في حقبة الاستعمار البريطاني، وهنا سنرى نفس النمط في سكك الحديد في أميركا الجنوبية وحالة الارجنتين تحديداً، التي أتمت بريطانيا الهيمنة عليها من خلال بناء سكك الحديد وتصميمها الذي يشبه أصابع الكف المفتوحة، يدلل على وظيفتها فهي تربط المصادر بالموانئ، لنقل الثروات الى الخارج والواردات الى الأسواق، ولم تصمم بأي نية الى ربط البلاد والمناطق الداخلية ببعضها البعض، طبعا بيع هذا المشروع كمشروع بنية تحتية تقدمي، بينما هو دمر السوق الداخلية للمنتجات المحلية، خصوصاً انه ترافق مع سياسة جمركية لصالح السلع البريطانية. ومعها رسوم نقل مرتفعة جدا لنقل أي منتجات مصنعة محلياً، وخلفت سكك الحديد وراثها دمار بيئي طال الاشجار والاراضي الزراعية والرعية واستهلك الاخشاب كفحم ليوقد القطارات ولأجل هذا لافحم استعبد الكثيرون، وكل هذا مزق المجتمعات وادى الى هجرات جماعية.

¹² ملاحظة جانبية، بوركينا فاسو تعني أرض الرجال مستقيمي القامة في اللغة الأصلية للبلاد، وليبيريا تعني الحرية وهي كلمة لاتينية الاصل، وبينما اعادت بوركينا تسمية نفسها مع برنامج تحرر وطني، تحررت ليبيريا لتكون أرض العبيد المحررين الذين لفظتهم أميركا واعادتهم الى قارتهم الأم للتخلص منهم ولكي تستخدمهم كمستعمرين يقومون بادارة مصالحها في هذه الدولة الغرب افريقية، وهي الدولة التي تواجه أعنف الصراعات الميليشياوية الدموية التي تمزقها وتزعزع أمن المنطقة.

تكررت هذه القصة في عدة بلدان، الا أن سكك الحدي بطبيعة الحال يكنها أن تكون نعمة ان تم تصميمها وتمويلها لأجل التنمية، ففي الباراغواي قبل حرب التحالف الثلاثي المذكور تحت عنوان اختلاق الحروب، كانت هناك سكك حديد، وصحيح انها انشئت بخبرات أجنبية الا أنها كانت تعمل لدى الدولة الباراغوانية بدل أن يكون العكس، هذا ما ينطبق على مشاريع التنمية والبنى التحتية في كل العالم اليوم، فالدول التي لا تمتلك سيادة وتستدين لانشاء مشاريع يتم خطها في الخارج، عادة ما تغرق في الديون لانشاؤ هذه المشاريع التي غالباً ما تكون مصممة لاستنزاف البلاد والسيطرة عليها وعلى مواردها.



العقوبات والقانون دولي

العقوبات موضوع واسع ومتشعب، له أوجه سياسية واقتصادية ودبلوماسية، الهدف منه محاصرة العدو بشكل سالب (passive) وتجفيف منابع قدرته على الصمود وشل قدرته على التحرك والمناورة، وفي كثير من الاحيان فالغاية الأبعد من هذه الاهداف هي تأليب الحاضنة الشعبية على هذا النظام أو ذاك اما لتغييره من الداخل أو لضعاف المقاومة الشعبية التي قد تنشب اثر احتلال معين (أميري كما العادة).

بالنسبة للباحث د.نيكولاس مودلر فإن ظاهرة العقوبات هي ظاهرة حديثة مرتبطة بالقانون الدولي وعصبة الأمم التي أنشأت عقب الحرب العالمية الأولى، ويعتبر ويدرو ويلسون مؤسس للخطاب الاخلاقي للعقوبات¹³ كبديل عن الحرب،ولكن الادعاء بانها اكثر انسانية، صحيح للطرف المعتدي فخسائره البشرية والمادية تكاد تكون معدومة ولكنها

¹³ مينيابوليس، 1919، تحدث الرئيس ويلسون وقال: "ان الأمة المقاطعة، هي أمة في طريقها للاستسلام. طبق هذا الدواء الاقتصادي السلمي الصامت والمميت ولن يكون هناك حاجة لاستخدام القوة، انه علاج فطبع. ولا يكلف حياة الأمة التي تتم مقاطعتها ولكنه يأتي بالضغط على الأمة، التي برأيي، لا يمكن لأمة عصرية أن تقاومها"

لا تقل توحشاً وهمجية عن الحرب العسكرية بالنسبة للضحايا، يعتبر الحصار على كوبا من أطول الحصارات المسجلة في التاريخ الحديث وكما نعلم فإن المجتمع الدولي كله بغربه وشرقه ضدها ولم يبقى غير الولايات المتحدة والعدو الصهيونيين هما الوحيدين المصريين عليها، بينما يعد الحصار على العراق وسلة العقوبات التي فرضت عليه هي الأشمل في التاريخ، وفي كوريا الشمالية وفنزويلا تستخدم العقوبات كدلالة على أن هذه الانظمة تتلذذ في تجويع شعوبها، ولا يتلفت الاعلام ولا الرأي العام أن من يقوم بعملية التجويع هم الذين يضربون الحصار الظالم والوحشي من الكتلة الغربية التي تنصب نفسها متحدثاً باسم المجتمع الدولي، يمكن اعتبار الحصار الذي كان يضرب حول المدن قديماً أيام الحرب نوعاً من أنواع العقوبات، يسجل التاريخ حصارات طويلة ومروعة مات فيها السكان من الجوع، أو اضطروا الى أكل بعضهم للنجاة من الجوع وحالات صمود أسطوري لشعوب قاومت الحصار للمرق الأخير كي لا تسلّم أو تستسلم، هذه الحصارات القديمة على وحشيتها أكثر أخلاقية من حصارات وعقوبات اليوم، فالحصار قديماً كان يتطلب من المعتدي الكثير من الجهد والتحشيد والمال والتنظيم، كان حرباً مكلفة على عكس عقوبات وحصارات اليوم التي تكفي فيها كلمة وقرار مكتوب من دولة أو دولتين مارتقتين لتدمير اقتصاد دولة وشعب ومصادرة اموالها وتجويع شعبها ولومها على كل ذلك، بالفعل كما يردد الكثير من الناشطين والحقوقيين اليوم فالعقوبات هي جريمة.

في مقابل د.مودر هناك من يعتقدون (Gary , Jeffrey , Kimberly Ann , & Barbara , 2007) أن منظومة العقوبات هي أقدم من ذلك بكثير، ويرجعونها لمنع استيراد المنتجات المأجربة، الأمر الذي أدى الى الحروب البيولوجية أو ما يسمى بالحروب الأهلية اليونانية، هنا كما في حوادث تاريخية كثيرة أخرى نرى أن العقوبات لا تحمل أي فضيلة أخلاقية، أنها هي نفسها قد تقود الى حروب كارثية، في التقرير تم رصد 12 حالة تاريخية (قبل الحرب العالمية الأولى) لاستخدام العقوبات كبديل للحرب أو كأداة عدوانية خلال الحرب، الملفت أنها كلها كانت من دول غربية فيما عدا واحدة لروسيا، نط آخر هو العقوبات التي كانت نتيجة الهزيمة عسكرية أو غير عسكرية، ولكنها كانت تتم بعد اخضاع الخصم وعادة ما كانت تهدف لتأديبه من جهة، ومن جهة أخرى وهي الأهم لضمان عدم قدرته على النهوض وأن يشكل خطراً أو نداءً من جديد، أما عقوبات اليوم فهي تتم في العادة لإخضاع الخصم قبل أن يهزم أو أن يواجه عسكرياً.

هنا مثال قرطاج جيد جداً، فرضت روما العقوبات على قرطاج بعد الهزيمة العسكرية، ليس من باب التاديب فقط بل لخوفهم من قوتها الاقتصادية والتي تشكل تهديداً لروما، هذه العقوبات كانت عسكرية واقتصادية في ذات الوقت، وبينما اختارت نخبة قرطاج الانصياع لها، اختار حملقار برصا اللتفاف عليها وعلى النخبة التي رفضت بناء قوة عسكرية وخرق العقوبات، وعليه أنشأ مدينة بارصا على ساحل ايبيريا الشرقي، والتي أصبحت تعرف اليوم ببرشلونة، وهكذا قام ببناء جيش قوي واقتصاد يرفده دون أن يرحج نخبة التجار في قرطاج، ابنه هو حنبعل بارصا الذي نذره لمحاربة الرومان، والذي سيقا تل روما على أرضها لأكثر من 15 عام دون هزيمة واحدة وسترفض نخبة قرطاج مساعدته، وستضطر روما الى مهاجمة قرطاج لاجباره على الخروج من ايطاليا ليدافع عن مدينته الأم، وسيضطر أن يخسر الحرب لأجل المدينة التي خذلتها، بعدها فرضت عقوبات أخرى على قرطاج أشد وأقسى وأكثر كلفة على المستوى الاقتصادي، وبالرغم من ان قرطاج تمكنت من سداد المستحقات الواجبة عليها بسرعة قياسية،

فقد استثمرت في الزراعة وتفوقت بها وعوضت العجز الذي فرضته عليها روما بمنعها من الاستمرار في سيادة تجارة المتوسط، ولكن هذا النجاح وهذه الطاعة لم تجلب الا الويلات لقرطاج، من المعروف في التاريخ أن السيناتور كاتو كان لا يتم أي خطاب له في مجلس الشيوخ دون ذكر جملة الخالدة "قرطاج يجب أن تدمر / Carthago delenda est بل في إحدى المرات كان قد خبأ حبتي تين¹⁴ في التوفا الخاصة به وتظاهر بانها وقعت على الارض دوفاً أن ينتبه، وبتحريض مسرحي درامي صرخ في المجلس لا يجب أن نترك لهذا أن ينمو مقابل سواحلنا، في هذه الأثناء كان حنبعل قد استقر في قرطاج وحاول اصلاحها من الداخل، وكما قامت قرطاج بالتعلم قليلاً من دروس الماضي وعملت على بناء اسطول عسكري سري ولكن الوقت كان قد فات، والحقد الروماني هو الذي انتصر في النهاية حوصرت قرطاج ودمرت واشعلت فيها النيران لتسعة أيام لباليها، قال الرومان أنهم يريدون حرقها حتى لا تنبت فيها بذرة بعد اليوم، وهكذا أصبحت تعرف معركة قرطاج الأخيرة هذه في التاريخ بانها الإبادة الأولى / The first genocide، أما حنبعل فاستمر في المقاومة بين ممالك المتوسط لبقية عمره مقدماً خدماته كأعظم قائد عسكري في التاريخ القديم والذي لا يزال فكره العسكري مرجعياً الى اليوم.

وبالعودة الى مسألة العقوبات، فقديماً كما اليوم الهدف منها هو القتل، سواء استعملت كبديل للحرب أو كأداة فيها أو كاجراء تالي لها، لذا فالصبغة الأخلاقية التي يحاول الغرب اضافتها عليها كاذبة، وهي اليوم نتيجة ثانوية لظاهرتين أساسيتين، القانون الدولي والمؤسسات الدولية، أما القانون الدولي من أن كان مجرد فكرة منحاز ضد الشعوب غير البيضاء والفقيرة، فجون ويستليك، استاذ جامعة كامبريدج ورائد القانون الدولي صرح عام 1894 بأن القانون الدولي يهدف ويطالب الأمم المم المتحضرة بالوصاية على بقية الشعوب التي يجب أن تسلم أرضها وثرواتها وارادتها لمن يستطيع قيادتها ومعرفة مصالحها أكثر منها وذلك أيضاً لأن هذه الاراضي والثروات ستكون مطمع للقوى العظمى المتحضرة، فبدلاً من شن الحروب لأجلها يجب تقسيم الوصاية قانونياً بين هذه القوى حقناً للدماء بواسطة القانون الدولي الذي بطبيعة الحال يخدم الاستعمار (Pershad، 2020).

¹⁴ كان الرومان يسمون التين بالثمر الافريقي، حيث كانوا يسمون منطقة تونس اليوم بافريقيا، وكان التين في ذلك الوقت من دلائل الثراء، برع القرطاجيون في الزراعة ويعتبر كتاب ماغو في الزراعة مرجعاً في تقنايتها في العالم القديم

3. مساعدات ومنظمات مجتمع مدني

"المساعدات، لذلك، بالنسبة الى دولة نيكولونيا، هو مجرد قرض دوار، يدفعه السيد النيكولونيا، ويمر عبر دولة نيكولونيا ويعود للسيد النيكولونيا على شكل أرباح متزايدة" الرئيس المخلوغ لغينيا كوامي نكرومه (Pershad, 2020)

أو بكلمات أخرى، فإن الاستعمار لا يعطي الا ليأخذ وأكثر الأحيان يأخذ أضعاف ما يعطي، فسواء تعلق الأمر بالمساعدات المادية والعينية، التي تدير اقتصاد الأمريكي وتشغل فيه شركاتها ومنظماتها وجمعياتها واستخباراتها، على حساب البلد الفقير، وعلى حساب دورة اقتصاده، أو ان تعلق بدعم منظمات المجتمع المدني وحقوق الانسان، تحت عنوان الحروب البيئية والغذائية هناك مثال عن دورة اقتصاد مساعدات القمح التي تمنحه أميركا للدول الفقيرة، او بالاحرى تفرضه عليها، تكلمت في أقسام أخرى عن أدوار المنظمات غير الحكومة وخاصة الدولية منها وعن حالة هاييتي تحديداً.

فبحسب كتاب فيجاي برشاد، طلقات واشنطن، نسبة المنظمات غير حكومية للشخص هي الأعلى في العالم، وفي الوقت الذي يطلب البنك الدولي تقليص عمل الحكومة بواجباتها تجاه المواطنين والمنصوص عليها بالدستور والقوانين، تأتي الجمعيات لتنتشر وتلعب دور المنقذ لتبدو الحكومات أكثر وأكثر تقصيراً بحق الناس، أحد الاشكاليات الكبرى لهذه المنظمات، انها وعلى عكس الحكومات غير خاضعة للمسائلة من قبل الشعب، وانها لا تهتم الا بالمسائلة الموجهة لها من قبل مؤسسيها من متمولين وحكومات غربية، وعلاوة على ذلك فهي تضع اهدافها وأولوياتها بعيداً عن حاجات الدولة التي تعمل بها وعن حاجة الفئة المستهدفة في ذلك البلد، اذ أن الممولين والمؤسسين لهذه المنظمات هم المسؤولون عن ذلك، وبذلك وفي حالة هاييتي تحديداً (وينطبق الكلام على دول أخرى) تتصرف هذه المنظمات كمشرفين ووأمرين استعماريين، يتم لوم هاييتي دائماً على فقرها، ويتم غض النظر عن أن فرنسا لا تزال تدين لها ب22 بليون دولار أمريكي، أو أن العنف والمخدرات والجريمة مصدرها التدخل الأمريكي المباشر والتكرار الانقلابات والحكام الديكتاتوريين الذين نصبتهم أميركا، وأن أميركا سرقت الذهب الهاييتي بدعوى حفظه من عدم الاستقرار وفرضت أن تصبح العملة مرتبطة بالدولار، أو ان التحريض العنصري من قبل الاستعمار في الدومنيكان، أدى الى كوارث ومجازر في هاييتي، فهي النموذج الذي يستمررون في قتله، لأنها أول ثورة ناجحة لتحرير السود من العبودية، ولكن ليس العبودية لوحدها، بل لأنها أعطت الرجل والمرأة السودين الحرية والكرامة والاستقلال الكامل، هذه الجزيرة الصغيرة دعمت وساعدت في ثورات بقية أميركا اللاتينية في ثوراتها لتحرر من الاستعمار الاسباني، ولكنها على عكس الاصدقاء البريطانيين والامريكيين على وضع نفسها كمستعمر جديد، وهذا نموذج خطير آخر يتم اغتيال هاييتي مراراً وتكراراً لأجله.

عندما سمحت أميركا للدكتاتورية بالرحيل من هاييتي عام 1986 من الشباك، كانت قد ادلخت مكانه صندوق النقد الدولي من الباب، وتم فرض التجارة الحرة، ولم يتم شطب الديون البغيضة التي سرقها الديكتاتور السابق المدعوم أميركياً، وبينما سمحت أميركا بالانتخابات فانها لم تسمح بفوز منتخب لا يمثل مصالحها، لذلك فانها قامت بالانقلاب على اريستيد المنتخب مرة، ومرة أخرى وبعد عودته وتسلم الرئاسة لمدة 8 أشهر فقط سيطر راوول سيدرا رجل

العصابات المدعوم من المخابرات الامريكية ومؤسسة الجمهوريين الدوليين وهاجمت منظمته مؤيدي اريستيد، وقادت موجة مدمرة من العنف بشكل ممنهج اطاحت بالتنظيم المجتمعي السياسي الذي كان آخذاً بالنمو، وبعدها وافق اريستيد على توقيع اتفاقية جزيرة غوفرنر، وبناء عليها عاد رئيساً للبلاد عام 1994، ولكن الحاكم الفعلي للبلاد بحسب الاتفاقية كان المنظمات غير الحكومية الدولية، كل ذلك تم تخطيطه وادارته من قبل ادارة كلينتون ووال ستريت، تفاقمت الامور عندما اضطرت هاييتي الى طلب مساعدة صندوق النقد الدولي بسبب عجزها المالي عام 1998، وعندما لم تستطع تلبية مطالب الصندوق، قام الصندوق مع منظمات أخرى بتجميد تمويل الحكومة، في نفس الوقت استمرت سيولة المنظمات غير الحكومية في التدفق، أكثر من ذلك فالمنظمات الممولة من ال USAID بدأت تتضخم ميزانياتها منذ 1998 بشكل متزايد، وأعلن مسؤول أمريكي لمجلس الشيوخ، بأن الولايات المتحدة الأمريكية ستبقى تسيطر وتمتلك زمام الأمور في هاييتي حتى بعد انسحابها العسكري وذلك عن طريق هذه المنظمات التي وصلت تعدادها للاف بالاضافة للقطاع الخاص، وفي الوقت الذي وجهت أميركا الزراعة في هاييتي للتصدير، وخفضت الحد الأدنى للأجور، قامت بتوزيع الأرز بشكل مجاني لتدمير زراعة الأرز الهايتية، دعمت أميركا التعليم الخاص ودمرت التعليم الحكومي وبرامج تعليم البالغين، وتم خفض الرسوم والتعريفات الجمركية لكي تفتح الباب للصادرات الامريكية (Super Imperialism, Hudson, 2003) و (Pershad, 2020)، من أكبر المستفيدين كان مزارعو الدجاج الأمريكيون الذين رموا منتجاتهم غير المرغوب فيها بينما خسرت مزارع الدجاج الهايتي، وفي هذا الوقت ازدهرت المصانع الامريكية في الجزيرة، حيث استطاعت أن تؤمن يد عاملة بأقل من ربع دولار بالساعة تعيش دون ربع الحد الأدنى من خط الفقر، وحين تم رفعها قليلا تحت الخط العبي لتصل المداخل الى اقل من نصف الحد الأدنى من خط الفقر، اعترضت مصانع القماش الأمريكية للسفارة الأمريكية، وبضغط سريع تم سحب القرار، استمرت الانقلابات الامريكية في هاييتي، ومعها ومع المنظمات غير الحكومية اختفت الدولة الهايتية وبحسب تعبير فيجاي برشاد ان هاييتي اليوم هي جمهورية ال NGOs.

تصدرت هاييتي نشرات الاخبار قبل عقد، عندما قتل 160 الفاً في زلزال مدمر، لم يلم أحد منظمات المجتمع المدني على الحالة المزرية التي أوقعت البلاد بها، بل إن المأساة جلبت المزيد والمزيد من الجمعيات، وعادت الجزيرة وتصدرت نشرات الأخبار قبل عدة سنوات لفضائح الاستغلال الجنسي والاعتصاب للاطفال والنساء التي يقوم بها عمال هذه المنظمات الذين يتقاضون رواتب منتفخة لتدمير الدول المضيفة والادعاء بمساعدتهم بدون حسيب أو رقيب، تقول الباحثة الفلسطينية أميرة سلمي، بأن وجود منظمة من هؤلاء تدافع عن حق ما، هو مدعاة للقلق، أو ناقوس خطر، فهذا يعني أن هذا الحق قد ذهب بلا عودة، أو أنهم يعملون على ذلك، فإن انتهاء قضية ما واستحصال هذا الحق، فهو يعني بطالة هؤلاء وانسداد موارد رزقهم، لذا فهم المعنيون الأوائل في ضمان عدم حصولك على حقوقك، مثال آخر تتركز فيه تشكيلة من الفضائح هو منظمة نحن / We الكندية التي تمثل مثلاً لفساد وانتهازية وتورط هذه الجمعيات في السياسة وعالم الأعمال والعنصرية والاستعمار في ذات الوقت.

4. التهجير ومعسكرات الاعتقال والمحميات

التهجير هو عملية نقل مجتمع أو شعب ما تم اخضاعه من بيئته الجغرافية الى بيئة أخرى، وذلك بهدف الاخضاع أو/والافقار أو/و الإبعاد عن خط التماس أو/و فصل البيئة الحاضنة عن المقاومة. وصحيح أنها لا تعد من الأساليب السلمية بالمطلق، ولكنها أيضاً ليست عسكرية بالكامل، في التاريخ المكتوب فإن أول من استخدم هذا الأسلوب هم الآشوريون وأشهر عملية تهجير قاموا بها هي السبي البابلي، ومن ثم سجنده يتكرر بشكل ممنهج في أميركا الشمالية في عمليات تهجير السكان الأصليين غرباً عدة مرات للاستيلاء على أرضهم ولتمزيق مجتمعهم وقتل أي فرصة لهم في استجماع قواهم للمقاومة من جديد، وأشهر عملية تهجير وأكثرها دموية هي ما عرف في مسيرة الدموع (العكش، حق التضحية بالآخر، أميركا والابادات الجماعية، 2002)، وكان الأميركيون يرون في التهجير عملية بديلة عن الإبادة المباشرة، ففيها يتم الاستيلاء على الأرض وتدمير البنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان الأصليين فينشغلون بلقمة عيشهم والأهم أنهم في الأرض الغريبة والبعيدة لن يكونوا قادرين على شن هجمات على المستعمرات البيضاء وعلاوة على التهجير عمد الأميركيون على وضع السكان الأصليين في محميات مغلقة عليهم تمنعهم فيها من العمل أو التنمية وهي اليوم مناطق موبوءة يأكلها الفقر والجريمة كأنما تنتمي للعالم الرابع في بؤسها، كذلك استخدمت الامبراطورية الاسبانية أسلوب التهجير ضد المقاومة الكوبية في القرن التاسع عشر (غاليانو ا، 2016) وكانت قد استوحته من النموذج الجنوب افريقي والذي ترافق مع معسكرات اعتقال للأهالي، والهدف من التهجير كان تجفيف البيئة الحاضنة للمقاومين في الارياف بشكل تام في حرب الغوار التي سنوها ضد الاستعمار الاسباني.

5. الحروب البيئية والغذائية

الحرب على البيئة هي ليست ضد الطبيعة وان استهدفتها، بل هي حرب على المجال الحيوي للشعب المستهدف، بهدف اخضاعه أو/تهجيريه ةسرقه ارضه وموارده أو اضعاف قدراته العسكرية والدفاعية، وذلك عن طريق خلق ظروف معيشية يستحيل بها البقاء، لذا فالتلوث الحاد في مياه سكان المحميات في كندا وأميركا ليس خطأً فنياً ولا صدفة، فمنذ أجيال والمستعمرون يدمرون كل مقومات الحياة التي يعتمد عليها السكان الأصليون والتي لم يعرفوا غيرها، من تدمير المزروعات وقتل الطيور وابتادة جواميس البفالو، الكثير من هذه الشعوب لديها ارتباط روحي مع الطبيعة كمفهوم متجذر في ثقافتها، ورؤية طبيعتهم مدمرة بهذا الشكل كسرهم روحياً وثقافياً ولكنه أدى الى مجاعات كثيرة وانتشار أمراض وأوبئة وسهل عمليات تهجير وابتادة أكثر.

ميزة هذا الأسلوب أنه في كثير من الأحيان صعب التتبع، وبعض الاعتداءات البيئية لا يمكن ردها أو اعادتها الى الورا، وبعضها لا يمكن اكتشافها الا بعد فوات الأوان، كنت قد ذكرت في البداية أن ملك غوجيان الصيني استطاع التفوق على صن تزو بالدهاء والحيلة في اضعاف جيشه، احدى الحيل التي استخدمها انه طلب مساعدة حبوب لزراعة محصول القمح، ووعد أن يؤمن البذار لخصمه (الذي يظنه حليفاً) في العام المقبل، قام ملك غوجيان بتأمين البذار كما وعد وفي الوقت المناسب ولكنه كان قد أمر بسلقها وتجفيفها، وبهذا لم يعلم خصمه الا بعد عام، وغرق في ورطة المجاعة وورطة أن جيشه أصبح معنيا بالزراعة وتأمين الغذاء بدل القتال. هكذا أيضاً وزعت الولايات المتحدة قمحاً ملوثاً هذا العام للمزارعين السوريين، وقد حذرت وزارة الزراعة السورية المواطنين من استخدامه، اذ انه سيضر بالمحاصيل وانتاجيتها لسنوات قادمة، وقتها سيكون قد فات الأوان لحل المشكلة.

" قال اغوستو غوتشين: "ان تاريخ حبة سكر هو درس كامل في الاقتصاد السياسي، والسياسة، وكذلك في الاخلاق" (غاليانو ا، 2016)

ذكرت سابقاً أن الاستعمار مشروع ثقافي ومعرفي، ولكنه أيضاً فسيما عدا استثناءات قليلة مشروع زراعي ضخم، ولكنها زراعة من نوع آخر، زراعة تدمر كل شيء لأجل الربح، تعرف اليوم بمفهوم الزراعة الأحادية، وتعنى بمحاصيل ربحية تسمى بال Cash crops، قام الاستعمار الغربي منذ البداية بسرقة بذور وأشتال الشعوب الأخرى، ومصادرة أراضيهم واستعباد ملايين البشر لانتاج المحاصيل للربح، فمن القرقة في سيرلانكا الى الكاكاو في فنزويلا، سيرة دموية للزراعة، وفي الوقت الذي امتاز الاستيطان في أميركا الشمالية بأنه استيطان احلاي أكثر من غيره من حالات الاستعمار الاحلاي¹⁵، والاستعمار الاحلاي وحده سعى لزراعة متنوعة مستدامة الى جانب الزراعة الأحادية التي اينما زرعت كانت التربة تستنزف، وينشط سوق العبيد، وتحقق الارباح الطائلة ويجوع المزارعين، ومن بين محاصيل القطن والقهوة والكاكاو والنيلة والموز التبغ والذرة والصويا والمطاط والسكر كان الأخير أسوأها وأكثرها شقاءً، صحيح أن أيدي رعايا الملك البلجيكي ليوبولد قطعت في "مزرعته" الكونغو لمن لم يحصدوا حصتهم من المطاط، الا أن السكر الذي جلبه العرب من الهند، واكتشفه الاروبيون خلال الحملات الصليبية وحملوا أشتاله الى العالم الجديد، كان أكثر الزراعات شقاءً وكان أكثرها ربحيةً هذا الذهب الأبيض الذي أدى الشره الأوروبي اليه الى تكوين ثروات ضخمة،

¹⁵ يمكن اعتبار كندا وجنوب افريقيا واستراليا المستعمرات الاحلاية الوحيدة الناجحة في العام

صاغت زراعته تاريخ الكاريبي وأميركا اللاتينية، وكانت هايتي أغنى مستعمرة في العالم ولكن ثرائها كله زرعه العبيد وحصده فرنسا، كان السكر مربحاً لدرجة أنه من المجدي أن تشتري عبداً وتشحنه عبر المحيط من أفريقيا الى الانتيل كل أربع سنوات، ولا يهم ان مات لأنه خلال أربع سنوات سيكون أنتج لك ثروات مضاعفة على كلفة شرائه وشحنه، يقول غاليانو: "افكر في انه لم يكن صدفة تجنيد فيديل كاسترو ثلاثة ارباع مقاتليه من بين الفلاحين، عمال السكر، وان تكون مقاطعة اورينتي، في آن واحد، اكبر منبع للسكر والانتفاضات في كل تاريخ كوبا. كما اني اتفهم الحقد المتراكم: وقررت الثورة في 1961 بعد الحصاد الضخم، ان تنتقم من السكر. لقد كان السكر الذاكرة الحية للذلال". (غاليانو ا.، 2016).

"غذاء الاقليات يتحول الى جوع الاغليات"

هذه المشاريع الزراعية كانت حصرية لدرجة أنها وبالرغم من غناها الا انها كانت لطالما تصاب بموجات من المجاعة، لان كل ما يزرع لا يصلح للاستهلاك اليومي ويزرع للتصدير وكان يمنع على المزارعين زراعة أي شيء لنفسهم، الا نادراً اذا استأجروا أرضاً أخرى ودفعوا ثمن ساعات عملهم في لاطعام أنفسهم، الا انه في أغلب الحالات تصمم هذه المشاريع على أن يشتري المزارع الفقير أبسط أساسياته الغذائية بأسعار تفوق نظيرتها في المدن التي يدفعها الأغنياء، والأهم انهم يشترون هذه المواد المبالغ في أسعارها من مشغليهم الذين يستغلونهم أصلاً، طبعاً هذا كله في حال كانت مزارع لا يشغلها العبيد. ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، وبعد اقرار قانون تحرير العبيد، اصرت الولايات الجنوبية على اعطاء المزارعين السود مستحققاتهم على شكل طلبات، لم يكفي أن دخلهم كان شحيحاً، بل كانت الطلبات لا يمكن استيفائها الا من مخزن السيد الأبيض الذي كان يضاعف الأسعار عليهم، ويضمن بذلك أن يعلق الرجل الأسود بدوامة مستمرة من الدين، تبقية في حالة عبودية غير معترف بها رسمياً (Zenn, 1980) ، ولا تنتهي المأساة هنا فدورة اقتصاد هذه الزراعات هي أشد ظلماً على المزارعين والعمال، فهذه المنتجات الربحية تمر بتقلبات مضاربة في السوق، فتبدأ المنافسة وتزداد أسعار ومعها تتكثف الزراعة ويزداد شقاء المزارعين لانتاج أكبر محاصيل ممكنة لتكديس أكبر قدر من الأرباح، وتؤدي هذه المنافسة الى تخمة مفاجئة في السوق وفتهبط الأسعار فجأة وتندمر وتخلق الكثير من المزارع ويترك المزارعون في مناطق نائية بدون بنية تحتية ولا مواصلات وفي أراض بترية فقيرة ومستنزفة ومياه ملوثة، ويكون عليهم أن يعيدوا بناء حياتهم من جديد في مكان جديد أو البقاء وتحمل تبعات الفقر المزمن جيلاً بعد جيل (غاليانو ا.، 2016).

يتحدث غاليانو أيضاً عن آلية الاستغلال مضاعفة التي تخلقها الزراعات في أميركا اللاتينية وهو كان يتحدث في السبعينيات وفي مسألة البن يقول أنه يفيد المستهلكين أكثر من المزارعين، بمعنى أن حبة البن تستنزف الأرض والموارد البشرية والطبيعية في انتاجها، وثم تباع الى أميركا بسعر زهيد بفضل الهيمنة على هذه الحكومة أو تلك، وينتج عن حبة البن هذه دورة اقتصاد أمريكية شمالية ضخمة، تبدأ من الشحن، الى التحميص الى التعليب الى التسويق، الى التوزيع وتباع بأضعاف أضاعف من تكلفه للامريكي، والأسوأ انه يتم بيعها في بلد المنشأ بأسعار عالية.

وهكذا فإن تراكم الربح الأمريكي من حبة البن هذه الذي يسمح له بالتسلح والتدخل العسكري والقمع وفرض الحكومات والانتقالات في دولة أو أخرى يحتاج وبعثاش الى حبة البن هذه، أو شتلة القطن تلك التي يزرعها الفلاح

الفقير الذي يموت شقائه بعرق جبينه، خلقت زراعة الموز بالذات أكبر امبرطور أمريكي في ذلك الزمن الذي أنشأ من الموز وفواكه قليلة أخرى، اساطيل شحن ومرافئ وسكك حديد، وتحكم بدول لاتينية عديدة، فصاحب شركة الفواكه المتحدة، القادم من شيكاغو مجرداً من أي ثروة عدا مسدسين اثنين أصبح الأمر النهائي لدول جنوب اميركا، ويحضر المؤتمرات لمن يخرج عن طوعه، ففي غواتيمالا قامت الشركة بتحضير 32 مؤامرة ضدها لأن حكومتها طرحت تطوير الاقتصاد الرأسمالي الفلاحي والاقتصاد الرأسمالي في الزراعة بشكل عام"، فتم شن هجوم من قوات مدربة في الولايات المتحدة الأمريكية ومسلحة من أبناء البلاد وبقيادة جنرال غواتيمالي، وساند الغزو قصف جوي أمريكي بأمر من الرئيس ايزنهاور، هذه العملية شارك في تنفيذها فريق من السفراء الامريكيين في غواتيمالا والدول المحيطة بها، وهو عمل هناهم عليه رئيس وكالة الاستخبارات المركزية في حينه، الذي كان هو نفسه عضواً في مجلس شركة الفواكه المتحدة، ولم يتوقف العنف في هذا البلد بعد أن نالت الشركة مرادها بل أن القتل والاعتقال استمر لسنوات بشكل يومي.

وفي أعماق الغابات في البرازيل، عانى السكان الاصليون من موجات المشاريع الاستعمارية، وبالرغم من وجود مرسوم ينص ويقر بسيادتهم على اراضيهم منذ عام 1537، فبفضل ثروات هذه الأراضي أصبحت غابات الأمازون خلفية مغامرة للبطل انداينا جونز، خارج شاشة السينما كما داخلها، وافتتحت جبهة غزو أمريكي جديدة في أعماق الأمازون، تم قتل الكثير من الهنود لتباع اراضيهم للأمريكين باثمان بخسة، بل وقد تم صيدهم من السماء بالطائرات المروحية والطائرات الصغيرة، وتم تعريضهم لفيروس الجدري، المعلوم تماماً انه فيروس قاتل لهم ولا يمتلكون المناعة ضده، كما القي الديناميت على قراهم وتم اهدائهم السكر المدسوس فيه سم، وقد تم اتهام رجل أميركا في البرازيل الجنرال برانكو بارتكاب 42 نوعاً من المؤامرات ضد أصحاب الأرض في الأمازون (Pershad, 2020).

اليوم لا تزال الزراعة جزءاً أساسياً من آلية الاستعمار، فالقمح والأرز الأمريكيين مصممان للهيمنة ويتم ادخالهما الى البلدان المفقره مع مساعدات ال USAID على حساب المحاصيل المحلية الأكثر تغذية والأكثر صحية والأهم التي تدعم دورة اقتصاد متكاملة داخل البلد المستهدف، وهذا يخدم مصالحها بشكل مزدوج من جهة فهي توسع أسواق منتجاتها من الحبوب والتي تعد بالنسبة لها سلع استراتيجية يجب الهيمنة على أسواقها والغاء منافسيها، ومن جهة اخرى فهي تشد الخناق على البلد المستهدف بتدمير سيادته الغذائية (Super Imperialism, Hudson, 2003)، في نفس الوقت تقوم الشركات الأمريكية بسحب عينات من البذور المحلية وحفظها وتعديلها جينياً، حتى لو كان التعديل طفيفاً وتسجيلها كملكية فكرية لحسابها، وتحاول هذه الشركات اعادة نشر هذه البذور التي تصمم لكي تكون بذار غازية واحلالية مكان البذور المحلية، وتعمل على بيعها في مواطنها الأصلية كملكية فكرية يمكن زراعتها لدورة زراعية واحدة ولا يمكن اعادة بذورها، أي انه على الفلاح شراؤها كل موسم من الأمريكي مع أسمدتها ومبيداتها الخاصة من نفس الشركات¹⁶، وتحاسب من يزرعها أو تصل لأرضه بالخطأ أو عن طريق الهواء وتقاضيه لسرقته

¹⁶ عدد من هذه الشركات الأمريكية، مثل مونسانتو وداو، ساهما في الحرب الامريكية على فيتنام، بانتاج كميات مهولة من المعامل البرتقالي، الذي رشت به الأراضي الفيتنامية بهدف تدمير الغطاء الأخضر، في محاولة للقضاء على الثوار الفيتناميين عن طريق القصف الجوي، طبعاً هذه المادة السامة لم تدمر وتلوث البيئة فحسب، بل هي لا تزال لليوم تتسبب بولادة أطفال فيتناميين بتشوهات خلقية فظيعة، بعد الحرب وجدت هذه الشركات نفسها متكيفة صناعياً لانتاج كميات ضخمة من هذه الكيماويات ولكن بدون سوق يستهلكها، لهذا عندها بدأت بانتاج البذور المعدلة جينياً والتي يمكنها الاستفادة ومقاومة هذه المواد الكيماوية في آن، فهذه البذور صنعت بالاساس لتسويق هذه الكيماويات.

ملكيتها الفكرية، هذه الحوادث حصلت في اميركا وكندا ولكن مسرحها الرئيسي كان في المكسيك، هذه البذور تكتنز ويتكثف فيها فلسفة وفكر الاستعمار، فبالاضافة لما سبق، عدد كبير من البذور المعدلة جينياً، يتم رش الأرض قبل زراعتها بالفسفور الأبيض، تستخدم هذه المادة القاتلة لآبادة كل ما هو حي على الأرض، لضمان أن لا تتقاسم أي بذرة محلية أخرى السماد والماء وما في التربة من معادن مع هذه البذرة الأمريكية المهجنة، أحد أسوأ فصول هذه البذور حصل في الهند والضحية هنا لم تكن التربة أو البذور المحلية فقط ولكن المزارعون أنفسهم، فقد قامت شركة مونسانتو ببيع بذورها من القطن بشكل غير قانوني، وأدت الى ادخال مئات الآلاف منهم ف دوامة من الديون الضخمة التي لا يمكنهم سدادها حتى لو باعوا أراضيهم، وخلال عقدين من الزمن أدت هذه الأزمة الى انتحار أكثر من ربع مليون مزارع قطن هندي.



الأمراض والأدوية

عنوان اضافي هنا يصعب التعمق فيه، هو واسع وبحاجة الى متخصصين للخوض فيه، ولكن يمكن الاكتفاء بذكره بشك ل سريع، وهو مسألة الامراض والأدوية، فيما يخص الأمراض فإنه من الموثق باعترافات الأوروبيين أنفسهم أنهم استخدموا الأغذية والهدايا الملوثة من مصابي الجدري، من بين امراض أخرى لاصابة الشعوب الأصلية لأميركا بهذه الأمراض، والتي لم يكونوا يمتلكون مناعة ضدها، وهي تسببت بمحو قرى ومجتمعات كاملة بسرعة فائقة، اعتبر الأوروبيون هذا مساعدة من الرب لهم في "تطهير" الأرض والاستيلاء عليها، وشارك في هذه العمليات المبشرون

والكنيسة الى جانب القادة العسكريين، ويحاول الغربيون اليوم تصوير ما حصل على أنه كان حادثاً بيولوجياً مؤسفاً نتج بشكل عارض نتيجة لالتقاء شعبين، وهذا بعيد كل البعد عن الصحة كما ذكرت، كما وأنهم يحاولون غسل أيديهم أكثر من دم الضحايا بالادعاء أن 90% من الشعوب الخمسمئة التي أبادوها ذهبت بفعل الأمراض وهذا أيضاً غير صحيح (العكش، حق التضحية بالآخر أميركا والابادات الجماعية، 2002)، طبعاً هناك الكثير من مراكز الأبحاث والتجارب للأسلحة البيولوجية التي تقوم بها أميركا بشكل سري، فضح أحدها في جمهورية جورجيا، وبعثتادي أن أميركا لم تجد جرثومة كالجدرى اليوم لتسلطها على أعدائها وتضمن أن لا تدمرها هي أيضاً ولكن ان وجدتها، فهي بالتأكيد ستستخدمها لأنها سلاح خفي، يمكن اعتباره عقاباً ربانياً والتبرؤ من دم الضحايا. أما بالنسبة للأدوية فان أغلب اجرام شركات الأدوية الأمريكية يقع أثره على الأمريكيين أنفسهم، وذلك بسبب القوانين وقوة لوبي شركات الأدوية داخل اميركا، فأما أدوية الأمراض المزمنة مثل السكري، فهي مرتفعة الثمن بشكل مبالغ فيه، لأن الشركات تقوم كل خمس سنوات بتعديلات طفيفة لا أثر دوائي لها ولكنها بذلك تحافظ على الملكية الفكرية وبراءة الاختراع، مما يضمن لها احتكار سوق حقنات الانسولين، وفي مجال دوائي آخر فهناك قصة المسكنات الافيونية، التي تسببت بموجة ادمان جديدة في أميركا على مخدر يدعي بالفينتانيل، اذ أن شركات مثل ساكرا ضللت المرضى وتآمرت مع مجتمع كامل من الأطباء بالرشوة، ودفعتهم لاستخدام مسكانتها (اوكسيكوتن) حتى لأبسط الأوجاع، مؤكدة لهم كذباً من قبل أطبائهم والمجلات والأبحاث والمؤتمرات العلمية بأن أدويتها لا تسبب الادمان، إلا أنه كارثة الادمان التي تسببت بها تؤدي الى حوالي 50 الف حالة وفاة بالجرعة الزائدة عام 2019، أما عام 2020 فتوفي حوالي 100 الف أمريكي، الأسوأ من كل هذا أن العلاج المستخدم والمعتمد من المستشفيات والشرطة لحالات الجرعة الزائدة تنتجه نفس الشركات التي تسببت بالوباء والذي يشكل لها مورد ربح اضافي.

- United states of America: .*TEDx Pine ridge*.The Lakota of Pine Ridge .(2010) .Aaron Huey
.TED x
- Journal* .Historical Research on International lending debt. vol. 4 .(1991) .Barry Eichengreen
.169-149 .*of Economic Perspectiv*
- Max-Planck- .Concept of Odious Debts“ The Evolution of the .(2008) .Christoph G. Paulus
.öffentliches Recht und Völkerrecht Institut für ausländisches
- .(2007) . Oegg Barbara و ، Elliott Kimberly Ann ، J. Schott Jeffrey ، Hufbauer Gary Clyde
Washington DC: PETERSON .*Economic Sanction reconsidered 3rd edition*
.INSTITUTE FOR INTERNATIONAL ECONOMICS
- Pledges of Empire: The Ara Pacis and the Donations .(2008) .Bridget Buxton و ،Diana Kliener
.89-57 .*American Journal of Archaeology* .of Rome
- تم الاسترداد من *Mexico proved that debt can be repudiated* .(March, 2017 24) .Eric Tousaint
Committee for the abolition of illegitimate debt: [https://www.cadtm.org/Mexico-](https://www.cadtm.org/Mexico-proved-that-debt-can-be)
[proved-that-debt-can-be](https://www.cadtm.org/Mexico-proved-that-debt-can-be)
- The تم الاسترداد من *https://thediplomat.com* .(December, 2014 30) .Francis P. Sempa
diplomat: [https://thediplomat.com/2014/12/the-geopolitical-vision-of-alfred-thayer-](https://thediplomat.com/2014/12/the-geopolitical-vision-of-alfred-thayer-mahan)
[/mahan](https://thediplomat.com/2014/12/the-geopolitical-vision-of-alfred-thayer-mahan)
- .New york: Grove press .*The Wretched of the earth* .(1963) .Frantz Fanon
- New York: Alfred A. Knopf, a . *Everything under the heavens* .(2017) .Howard W. French
.division of Penguin Random House LLC
- .Row & New York: Harper .*A People's History of the United States* .(1980) .Howard Zenn
- .*Colonial effects: the making of national identity in Jordan* .(2001) .Joseph Andoni Massad
.New York: Columbia University Press
- .London: Pluto press .*Super Imperialism* .(2003) .Michael Hudson
- .California: CounterPunch Books .*Killing the host* .(2015) .Michael Hudson

Dresden: *.and forgive them their debts: Lending, Foreclosure and ...* .(2018) .Michael Hudson
.ISLET-Verlag

Economic 'freedom's' Awfull toll; The 'Chicago Boys' in .(October, 1976) .Orlando Letelier
.52-44 .*Review of Radical Political Economics* .Chile

THE CONCEPT OF ODIIOUS DEBT IN PUBLIC .(2007) .Prof. Robert Howse
.UNCTAD .*INTERNATIONAL LAW*

.Hurst publishers .*Inglorious Empire - What the British Did to India* .(2016) .Sashi Tahroor

London: Scribe .*Inglorious empire, what the british did to india* .(2017) .Sashi Tahroor
.Publishers

.New Delhi: LeeWord Books .*Washington bullets* .(2020) .Vijay Pershad

ادوارد سعيد. (1981). *الاستشراق المعرفة السلطة الانشاء*. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

ادوارد غاليانو. (2016). *الشرايين المفتوحة لأميركا اللاتينية*. لندن: طوى للثقافة والنشر والاعلام.

منير العكش. (2002). *حق التضحية بالآخر، أميركا والابادات الجماعية*. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.

منير العكش. (2009). *أميركا والابادات الثقافية "لعنة كنعان" الانجليزية*. بيروت: رياض الريس.